الفصل الأول

وقف ماجد زاهر أمام عدسة التلسكوب الهائل، ولم يجرؤ على أن يرفع رأسه.

كانت غرفة الرصد غارقة في ضوء أزرق باهت ينبعث من الشاشات المحيطة بالجدران. همهمة أجهزة التكييف ومولدات الأكسجين كانت الصوت الوحيد الذي يكسر الصمت، كأنها تتنفس نيابة عن المحطة كلها. خلف الزجاج السميك، كانت الأرض تدور ببطء، مغطاة بسحابة سوداء كثيفة لا تسمح لأي ضوء أن يخترقها. لم تعد زرقاء. لم تعد حية. بدت كجثة عملاقة معلقة في الفراغ، ملفوفة بكفن من رماد وشتاء نووي لا ينتهي.

أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما من جديد. السحابة لم تتغير. منذ أسابيع وهو يراقبها كل يوم في الموعد نفسه، ينتظر معجزة أو إشارة أو أي ضوء خافت في مكان ما على السطح. لا شيء. فقط السواد الثقيل الذي يبتلع القارات والمدن والأنهار وكل ما كان يعرفه.

تراجع خطوة عن التلسكوب، ومرر يده على وجهه. شعر أن أصابعه باردة رغم أن درجة الحرارة داخل المحطة مضبوطة بدقة. تذكر فجأة أول يوم وصل فيه إلى محطة «الرازي». كان يومًا مختلفًا تمامًا. الأرض كانت لا تزال زرقاء لامعة تحته، والسحاب الأبيض يرسم خرائط متغيرة فوق المحيطات. كان يتحدث بحماس عن الخلايا الشمسية، وعن كيف أن ساعة واحدة من ضوء الشمس تكفي العالم كله لعام كامل إذا أحسن استغلالها. كان يعتقد أن المستقبل يُصنع هنا، في هذه الغرف المعدنية الرمادية، بعيدًا عن ضجيج الأرض وصراعاتها.

الآن لم يعد هناك مستقبل واضح. ولا ضجيج.

سار ببطء عبر الممر المؤدي إلى لوحة الإنذارات. معظم الأضواء كانت خضراء هادئة. واحد فقط، في القطاع التاسع عشر، بدأ يومض باللون الأحمر الخافت. روبوت آخر في طريق العودة. أو ربما مجرد عطل في الإشارة. لم يعد يفرق كثيرًا.

وضع كفيه على حافة اللوحة المعدنية الباردة، وأسند وزنه إليها. خلفه، الشاشات تعرض بيانات قديمة لا أحد سيقرأها. أمامه، عبر النافذة الضيقة، كانت السحابة السوداء تبدو أقرب مما كانت عليه بالأمس.

همس لنفسه، بصوت أجش لم يستخدمه منذ ساعات:

- إلى متى؟

لم يجب أحد. المحطة كانت فارغة إلا منه ومن نجوى، وهي في غرفتها منذ الصباح، لم تخرج، ولم ترد على النداء الداخلي.

رفع رأسه أخيرًا ونظر إلى الأرض الميتة مرة أخرى. في مكان ما تحت تلك السحابة، كانت هناك مدن كانت تضيء بالليل، وأنهار كانت تجري، وأناس كانوا يضحكون ويختصمون ويحلمون. الآن لم يبقَ سوى الصمت، والروبوتات التي تعود من رحلات بلا معنى، ورجلان أو ربما رجل وامرأة يحاولان ألا يجنّا داخل علبة معدنية تدور حول جثة كوكب.

أدار ظهره للتلسكوب، واتجه نحو باب الغرفة. الخطوات على الأرضية البلاستيكية بدت أعلى من المعتاد في هذا الصمت.

كان عليه أن يفحص الروبوت القادم.

كان عليه أن يستمر.

حتى لو لم يعد يعرف لماذا.

الفصل الثاني

لم ينم ماجد تلك الليلة.

ظل مستلقيًا على سريره الضيق في غرفته الصغيرة، يحدّق في السقف المعدني الرمادي الذي يعكس ضوءًا باهتًا من شاشة الطوارئ المثبتة في الزاوية. كلما أغمض عينيه، عادت الصور نفسها تتزاحم خلف جفنيه: وميض أبيض أول، ثم سحابة تشبه الفطر ترتفع ببطء فوق الأفق، ثم الظلام الذي لم ينجَلِ أبدًا.

بدأت الحرب بسرعة أكبر مما توقعه أي أحد.

في البداية كانت تهديدات متبادلة عبر الشاشات، خطابات نار، مناورات على الحدود البعيدة. ثم في ليلة واحدة، تحول كل شيء إلى ضوء. لم يرَ ماجد الانفجارات بنفسه؛ كان على المحطة حينها، في نوبة عمل متأخرة. لكن الصور وصلت بعد دقائق. مدن كاملة تُمحى في ومضات صامتة. ثم جاء الشتاء.

السحابة السوداء لم تظهر دفعة واحدة. بدأت كبقع داكنة فوق المناطق المنكوبة، ثم تمددت كحبر يسقط في ماء ساكن. حجبت الشمس أسابيع، ثم شهورًا. انخفضت درجات الحرارة، وماتت المحاصيل، وتحولت الأمطار إلى حمض يحرق الأوراق والجلود. الناس في البداية تحدثوا عن «الشتاء النووي» كمصطلح علمي بارد. بعد ذلك لم يعد أحد يتحدث كثيرًا.

أما الطاعون... فقد جاء بهدوء أشد رعبًا.

الإشعاع لم يقتل البكتيريا. هو غيّرها. سلالات قديمة كانت تعيش في التربة والمياه منذ ملايين السنين تعرضت لجرعات هائلة من الإشعاع المتساقط، فبدأت تتحور. في الأشهر الأولى ظهرت حالات غريبة في المدن الناجية: حمى لا تستجيب، طفح جلدي ينتشر بسرعة، ثم انهيار كامل للأعضاء في أيام قليلة. منظمة الصحة العالمية أعلنت حالة طوارئ. ثم أعلنت الحجر. ثم صمتت.

يتذكر ماجد آخر بث وصله من الأرض بوضوح مؤلم. كانت صورة مهتزة لعالمة ترتدي بدلة واقية، صوتها مبحوح خلف القناع:

«المصل يحتاج إلى وقت... الوقت الذي لم يعد لدينا.»

بعد ذلك انقطعت معظم الاتصالات. المحطات الأرضية توقفت واحدة تلو الأخرى. الروبوتات التي أُرسلت لجمع عينات لم تعد. والرسائل التي كانت تصل من مراكز المتابعة صارت أقصر، ثم أندر، ثم صارت مجرد ضوضاء بيضاء.

رفع ماجد يده في الظلام ومررها على وجهه. كان يتذكر وجه أخيه الصغير في آخر مكالمة فيديو قبل أن تسقط المدينة التي يقيم فيها تحت السحابة. كان الأخ يبتسم ليطمئنه، لكن عينيه كانتا تقولان شيئًا آخر. بعد أسبوعين لم يعد يرد.

الآن، بعد كل هذه الشهور، صار ماجد يعرف أن ما حدث لم يكن مجرد حرب. كان سلسلة من الأخطاء المتتالية: غرور بشري، ثم إهمال، ثم عجز كامل عن إيقاف ما بدأوه بأنفسهم. البكتيريا لم تكن العدو الأول. العدو كان الإنسان الذي فتح لها الباب ثم وقف يراقبها وهي تخرج.

نهض من السرير ببطء. قدماه لمستا الأرضية الباردة. عبر النافذة الصغيرة في جدار غرفته، كانت السحابة السوداء لا تزال هناك، ثابتة، صبورة، كأنها تنتظر أن ييأس تمامًا.

في الممر الخارجي سمع صوتًا خافتًا: خطوة واحدة، ثم توقف. نجوى كانت مستيقظة هي الأخرى. لم يخرج إليها. لم يكن بعد قادرًا على مواجهة عينيها هذه الليلة.

جلس على حافة السرير من جديد، وأسند رأسه إلى يديه.

الحرب انتهت منذ زمن.

الشتاء مستمر.

والطاعون... الطاعون فاز.

وهو ونجوى مجرد شاهدين متأخرين يجلسان في علبة معدنية فوق قبر جماعي بحجم كوكب.

الفصل الثالث

كانت نجوى سليمان تجلس على الأرض في غرفة الاتصالات، ظهرها مسند إلى الجدار المعدني البارد، ويداها ملتفتان حول ركبتيها.

الشاشة الكبيرة أمامها كانت سوداء تمامًا. لا ضوضاء بيضاء هذه المرة، ولا إشارات متقطعة. فقط سواد مطلق كالقبر. منذ ست ساعات وهي تضغط الأزرار نفسها، تعيد ضبط الترددات، تجرب القنوات القديمة التي كانت تصل إلى المراكز الأرضية، ثم القنوات الاحتياطية، ثم القنوات العسكرية السرية التي لم يعد أحد يستخدمها. لا شيء. حتى الصدى الذي كان يعود إليها في الأيام السابقة اختفى.

رفعت رأسها ببطء. عيناها محمرتان، والشعر الأسود المربوط بإهمال يتساقط على جبهتها. كانت ترتدي الزي الرمادي الفضفاض نفسه منذ ثلاثة أيام، ولم تعد تهتم. في المرآة الصغيرة المثبتة بجانب الباب رأت وجهها للحظة: شاحبة، نحيفة أكثر مما كانت، والخطوط تحت عينيها أعمق.

همست لنفسها بصوت أجش:

ـ لماذا أحاول أصلًا؟

لم يجب أحد. المحطة كانت صامتة كعادتها، إلا من همهمة المولدات البعيدة.

أغمضت عينيها، فعادت الذكريات كسيل مفاجئ.

كانت في المختبر الأرضي قبل ثلاث سنوات ونصف، في اليوم الذي ظهرت فيه أولى النتائج الغريبة. العينة التي جلبتها الروبوتات من منطقة ملوثة بالإشعاع أظهرت تحورًا غير متوقع في سلالة بكتيرية قديمة. كتبت التقرير في الليلة نفسها، وأرسلته إلى اللجنة العليا. في الصباح جاء الرد: «مبالغة. راقبي فقط».

بعد أسبوعين ظهرت الحالات الأولى في المدن الناجية. حمى لا تستجيب للمضادات، طفح ينتشر كالنار في الهشيم، ثم انهيار الأعضاء في أقل من أسبوع. أرسلت تقريرًا ثانيًا، أكثر تفصيلًا، مع نماذج محاكاة. هذه المرة جاء الرد أبطأ: «اللجنة تدرس».

ثم جاء التقرير الثالث، والرابع، والخامس. كل مرة كانت تقول الشيء نفسه بصيغ مختلفة: «البكتيريا تتحور أسرع مما نتوقع. المصل الحالي عديم الفائدة. نحتاج إلى حجر شامل فوري».

في المرة الأخيرة التي تحدثت فيها مع رئيس اللجنة عبر الشاشة، كان وجهه شاحبًا ومتعبا. قال لها بصوت هادئ كأنه يعتذر:

«الدول الكبرى لا تريد أن تسمع هذا الكلام الآن. الحرب لم تنتهِ بعد، والاقتصاد ينهار. إذا أعلنا الحجر الشامل ستنهار البقية».

أجابته بصوت مرتفع لأول مرة في حياتها المهنية:

«إذن ستنهارون أنتم والبكتيريا معًا».

قطع الاتصال.

بعد شهرين ماتت أختها الصغرى في المدينة التي كانت تظنها آمنة. وبعد أسبوع آخر انقطع الاتصال بوالديها. وبعد ذلك لم يعد هناك أحد ترد عليه.

فتحت نجوى عينيها فجأة. الدموع لم تنزل هذه المرة، لكنها كانت موجودة خلف الجفون، ثقيلة كالرصاص.

نهضت ببطء، تشعر أن ركبتيها تؤلمانها من الجلوس الطويل على الأرض. سارت نحو لوحة التحكم مرة أخيرة، وضغطت زر الإغلاق الكامل للترددات الأرضية. الشاشة أظلمت تمامًا، وأضيء ضوء أحمر صغير يقول: «لا إشارات واردة».

في الممر الخارجي سمعت خطوات بعيدة. ماجد. كان يتحرك في غرفة الرصد أو في الممر المؤدي إلى عنابر الروبوتات. لم تذهب إليه. لم تكن مستعدة بعد لأن تراه وهو يحاول أن يبتسم لها أو يقول جملة مطمئنة لا تعني شيئًا.

عادت إلى غرفتها الصغيرة، أغلقت الباب بهدوء، وجلست على حافة السرير. من النافذة الضيقة كانت ترى جزءًا من السحابة السوداء التي تلف الأرض. بدت أقرب الليلة، أو ربما هي التي صارت أضعف.

مدّت يدها إلى الدرج الجانبي وأخرجت الجهاز الشخصي القديم. فتحت مجلد التسجيلات الصوتية التي لم تجرؤ على الاستماع إليها منذ شهور. اختارت واحدًا عشوائيًا. صوت أختها الصغيرة يضحك ويحكي عن يوم في المدرسة قبل أن يبدأ كل شيء.

أغلقت الجهاز بسرعة قبل أن ينتهي التسجيل.

جلست في الظلام دقائق طويلة، ثم همست مرة أخرى، هذه المرة بصوت أوضح:

ـ كنتُ أعلم. وقلتُ لهم. ولم يسمع أحد.

في الخارج استمر الصمت. المحطة تدور حول جثة كوكب، وهي تدور داخل جثتها هي.

بعد قليل ستخرج. ستذهب إلى غرفة الطعام أو إلى لوحة الإنذارات، وستجد ماجد هناك. ربما يتحدثان قليلًا عن الروبوت القادم، أو عن الأكسجين المتبقي، أو عن أي شيء آخر غير الأرض. لكن الليلة، في هذه اللحظة بالذات، كانت وحدها تمامًا مع ما كانت تعرفه منذ البداية ولم يصدقها أحد.

الطاعون لم يأتِ فجأة.

هو جاء ببطء، وهي رأته قبل الجميع.

والآن لم يبقَ أحد ليقول لها: «كنتِ على حق».

الفصل الرابع

عاد الروبوت رقم 16 في الساعة الثالثة فجرًا بتوقيت المحطة.

أضاء الضوء الأحمر في لوحة الإنذارات بهدوء، ثم تحول إلى أصفر ثابت. ماجد كان مستيقظًا أصلًا. لم ينم منذ أن غادر غرفة الرصد. ارتدى الزي الواقي الخفيف، ودخل إلى عنبر الاستقبال وهو يشعر أن جسده يتحرك من تلقاء نفسه، كأن الروتين هو الخيط الوحيد الذي ما زال يمسك به قبل أن ينهار تمامًا.

فتحت البوابة الهوائية بصوت صفير خافت. الروبوت رقم 16 انزلق إلى الداخل على مساراته المغناطيسية، سطحه الخارجي مغطى بغبار فضائي خفيف وآثار إشعاع منخفضة. كان من طراز «الحارس-7»، مخصصًا لجمع عينات من الكواكب الخارجية القريبة. هذه المرة عاد من مهمة حول أحد أقمار المشتري، مهمة بلا معنى الآن، لكنها كانت مبرمجة منذ سنوات ولم يلغها أحد.

ماجد وقف أمامه، ووضع كفيه على لوحة التحكم المحمولة.

ـ ابدأ الفحص الروتيني.

الروبوت أصدر نغمة تأكيد قصيرة، ثم بدأت الأنظمة الداخلية تدور. شاشات صغيرة أظهرت مستويات الطاقة، سلامة الهياكل، ونقاء العينات المخزنة. ماجد راقب الأرقام واحدًا تلو الآخر، يدون ملاحظات في الجهاز اللوحي كأنه ما زال في الأيام الأولى للمحطة، حين كان كل شيء له معنى.

يده ارتجفت لحظة وهو يقرأ تقرير الإشعاع. تذكر فجأة كيف بدأت الحرب.

لم تكن حربًا واحدة. كانت سلسلة من الحرائق التي اشتعلت في أماكن متفرقة ثم اتصلت ببعضها كحبل مشعل.

في ذاكرته، كانت التقارير الأولى تتحدث عن تفشي موجات من التطرف. تطرف سني يتغذى على خطابات الغضب والحدود المغلقة، وتطرف شيعي يرد عليه بنفس اللغة، وتطرف مسيحي يرفع رايات قديمة في أوروبا وأمريكا، وتطرف يهودي يغذي مخاوف وجودية في المنطقة. كل طرف يرى في الآخر نهاية العالم، فيسارع إلى صنع نهايته بنفسه.

ثم انفجرت الجبهات.

تركيا تحت أردوغان دخلت في تحالفات متقلبة مع باكستان، بينما السعودية وقطر انقسمتا على نفسيهما ثم انضمتا إلى محاور مختلفة. إسرائيل رأت في الفوضى فرصة أو خطرًا وجوديًا، فحركت آلتها. أمريكا ودول الناتو تدخلت بحجة حماية الاستقرار العالمي، ثم وجدت نفسها غارقة في حرب لا تشبه أي حرب سابقة. أفغانستان عادت طالبان إلى الواجهة بقوة أكبر، وسوريا تحت الجولاني تحولت إلى ساحة تصفية حسابات جديدة. ليبيا انقسمت بين الدبيبة وخصومه، والصومال والسودان انهارتا تحت وطأة الجماعات المسلحة. إيران والعراق ولبنان واليمن اشتعلت جبهاتها القديمة من جديد. روسيا والصين راقبتا في البداية، ثم تدخلتا لحماية مصالحهما ونفوذهما، فصار الصراع عالميًا.

ماجد تذكر صور المدن وهي تُمحى في ومضات نووية متتالية. لم يكن أحد يعرف من أطلق الصاروخ الأول بالضبط. التقارير كانت متناقضة، والدعاية كانت أقوى من الحقيقة. لكن النتيجة واحدة: السحابة السوداء بدأت تتشكل، والشتاء النووي غطى نصف الكوكب، ثم جاءت البكتيريا المتحورة لتجهز على ما تبقى.

هز رأسه بعنف، كأن يطرد الذكريات من رأسه.

ـ استمر في الفحص.

الروبوت واصل عمله بهدوء آلي. ماجد انتقل إلى فحص العينات الجيولوجية. كانت صخورًا عادية من قمر بعيد، لا تحمل أي سر، ولا أي أمل. لكنه دون النتائج بدقة، كأنه يؤدي طقسًا مقدسًا يحميه من الجنون.

في لحظة صمت بين جهازين، همس لنفسه:

ـ لو ركزوا على الإنسان بدل الآلهة والأعلام... ربما كنا ما زلنا هناك.

لم يجب الروبوت. هو لا يفهم مثل هذه الجمل.

أنهى الفحص بعد ساعة ونصف. الروبوت رقم 16 أُرسل إلى عنبر الشحن لإعادة التزويد بالطاقة. ماجد خلع القفازات، وغسل يديه في الحوض الآلي، ثم سار في الممر الطويل عائدًا إلى غرفة الرصد.

الأرض كانت لا تزال هناك، ملفوفة بالسواد.

الروبوتات تعود وتذهب.

وهو يتمسك بالروتين كآخر قشة.

في مكان ما داخل المحطة، كانت نجوى مستيقظة أيضًا. شعر بوجودها دون أن يراها. ربما كانت تراقب الشاشات هي الأخرى، أو تحدق في السقف كما يفعل هو كل ليلة.

الروتين يحميه الآن.

لكنه يعرف أن الروتين نفسه سينتهي يومًا، عندما ينفد الأكسجين أو عندما ينهار أحدهم أخيرًا.

جلس أمام التلسكوب من جديد، وبدأ يسجل تقرير الروبوت في السجل الرسمي، بصوت هادئ وواضح، كأنه ما زال يؤدي واجبه تجاه جنس بشري لم يعد موجودًا.

الفصل الخامس

وجدها في غرفة الطعام في الساعة السابعة صباحًا بتوقيت المحطة.

كانت تجلس وحدها أمام طاولة معدنية طويلة، أمامها صينية طعام لم تمسها إلا قليلًا. الشاي في الكوب قد برد، وقطعة الخبز الصناعي مكسورة إلى نصفين دون أن تؤكل. الضوء الأصفر الخافت كان يجعل وجهها أكثر شحوبًا مما هي عليه فعلًا.

ماجد توقف عند الباب لحظة، ثم دخل بهدوء. لم يسألها إن كانت قد نامت. كان الجواب واضحًا في عينيها.

جلس على الجهة المقابلة، وترك مسافة كافية بينهما. الصمت امتد ثواني طويلة قبل أن يبدأ هو الكلام، بصوت منخفض كأنه يخاف أن يكسر شيئًا هشًا:

ـ الروبوت 16 عاد سليمًا. العينات عادية. لا شيء يستحق التقرير.

نجوى رفعت عينيها إليه ببطء. نظرتها كانت ثابتة، لكنها متعبة إلى درجة تجعلها تبدو أبعد مما هي عليه.

ـ وهل هناك شيء يستحق التقرير أصلًا؟

السؤال جاء هادئًا، لكنه حمل ثقلًا لم يتوقعه. ماجد وضع كفيه على الطاولة، ومرر إبهامه على حافتها الباردة.

ـ الروتين يبقينا... واقفين. لو توقفنا عن الفحص والتسجيل، سنبدأ نفكر أكثر مما ينبغي.

ابتسمت نجوى ابتسامة صغيرة مريرة، وهزت رأسها مرة واحدة.

ـ نفكر في ماذا؟ في أن الأرض انتهت؟ في أن لا أحد سيقرأ تقاريرنا؟ في أن الروبوتات ستستمر في الدوران حول كواكب فارغة بعد أن نموت نحن؟

صوته جاء أهدأ هذه المرة، لكنه كان يحمل شيئًا من الدفاع:

ـ ربما هناك أحد في مكان ما. محطة أخرى. سفينة نجت. حتى لو كانت احتمالات ضئيلة...

قاطعته بحدة خفيفة لم تكن فيها غضب حقيقي، بل خوف مكبوت:

ـ احتمالات ضئيلة؟ ماجد، منذ ثمانية أشهر لم تصلنا أي إشارة. لا من المريخ، ولا من المحطات القمرية، ولا من أي مكان. السحابة سوداء تمامًا. الطاعون أنهى ما بدأته القنابل. وأنت ما زلت تتحدث عن احتمالات.

نظر إليها بثبات هذه المرة. لأول مرة منذ أسابيع كان الحوار حقيقيًا، لا مجرد تبادل معلومات فنية.

ـ وأنت؟ ماذا تفعلين كل يوم في غرفة الاتصالات؟ تعيدين ضبط الترددات التي تعرفين أنها ميتة. لماذا؟

صمتت. عيناها تحركتا نحو النافذة الصغيرة التي تظهر جزءًا من الظلام الخارجي. ثم قالت بصوت أضعف:

ـ لأنني أخاف من الصمت الكامل. أخاف أن أستيقظ يومًا وأجد أنني نسيت صوت البشر. حتى لو كان الصوت مجرد ضوضاء بيضاء... أفضلها على لا شيء.

ماجد شعر بشيء يتحرك في صدره. ليس تعاطفًا فقط، بل اعترافًا مشتركًا لم يجرؤا على قوله من قبل.

ـ أنا أيضًا أخاف. أخاف أن أستيقظ يومًا ولا أجد سببًا لأرتدي هذا الزي أو أفتح لوحة الإنذارات. الروتين هو الكذبة التي نعيش بها كي لا ننهار.

نجوى نظرت إليه طويلًا هذه المرة. التوتر الخفيف الذي كان بينهما منذ أيام بدأ يتحول إلى شيء آخر: خوف مشترك، واعتراف متبادل بالهشاشة.

ـ هل تعتقد أننا نؤخر النهاية فقط؟ أم أننا نصنع شيئًا... حتى لو كان صغيرًا؟

لم يجب فورًا. فكر في الروبوتات التي تعود فارغة، وفي التقارير التي لا يقرأها أحد، وفي الأرض الميتة تحتهم.

ـ لا أعرف. لكنني أعرف أننا إذا توقفنا الآن، سنموت قبل أن ينفد الأكسجين. سنموت من الداخل.

هي أمسكت الكوب البارد بيديها الاثنتين، وكأنها تبحث عن دفء لم يعد موجودًا.

ـ إذن نكمل. نفحص الروبوتات. نسجل. نعيد ضبط الترددات. وننتظر... أو نتظاهر أننا ننتظر.

ابتسم ماجد ابتسامة صغيرة متعبة، لأول مرة منذ أيام.

ـ نعم. نتظاهر.

جلسا في صمت بعد ذلك، لكن الصمت لم يكن فارغًا كما كان من قبل. كان مليئًا بخوف مشترك، وباعتراف صامت أنهما لم يعودا وحدهما تمامًا داخل هذه العلبة المعدنية.

بعد قليل نهضت نجوى، وحملت صينيتها إلى وحدة إعادة التدوير. قبل أن تخرج، التفتت إليه وقالت بصوت هادئ:

ـ غدًا... إذا عاد روبوت آخر، ساعدني في الفحص. ربما يكون أسهل إذا كنا اثنين.

أومأ برأسه.

ـ حسنًا.

خرجت، وتركته وحيدًا في غرفة الطعام. لكن الوحدة هذه المرة كانت أقل حدة.

في مكان ما داخل المحطة، كان الروتين ما زال يدور.
وفي مكان أعمق، بدأ شيء آخر يتشكل ببطء: خوف مشترك يتحول، شيئًا فشيئًا، إلى رفقة.

الفصل السادس

كان المساء هادئًا أكثر من المعتاد.

بعد أن أنهيا فحص روبوت جديد معًا، جلسا في غرفة الرصد. الشاشات كانت تعرض بيانات قديمة لا تعني شيئًا، والأرض تحتهم ما زالت ملفوفة بالسواد. ماجد لم يشغل التلسكوب هذه المرة. اكتفى بالجلوس على الكرسي المجاور لها، تاركًا المسافة بينهما أقل مما كانت عليه قبل أيام.

نجوى كانت تحدق في النافذة الطويلة. صوتها عندما بدأت الكلام جاء هادئًا، كأنه يخرج من مكان بعيد داخلها:

ـ أختي كانت أصغر مني بست سنوات. اسمها لينا.

ماجد لم يقاطعها. أدار رأسه قليلاً نحوها، وانتظر.

ـ كانت تدرس في السنة الثانية طب. تحلم أن تصبح جراحة أطفال. في آخر مكالمة فيديو قبل أن تسقط المدينة، كانت تضحك وتقول لي إن المحاضرات صارت عبر الشاشات بسبب «الوضع»، وإنها تكره الكمامات. كانت تضع وشاحًا أزرق على شعرها... نفس الوشاح الذي أرسلته لها في عيد ميلادها الأخير.

صوتها ارتجف لحظة، ثم استمر:

ـ بعد أسبوعين انقطع الاتصال. حاولت كل الترددات. لا شيء. بعد شهر وصلتني رسالة قصيرة من زميلة لها في السكن الجامعي. قالت إن لينا أصيبت بالحمى أولًا، ثم الطفح، ثم... في أقل من خمسة أيام. لم يستطيعوا دفنها. كانوا يحرقون الجثث في الساحات لأن المقابر امتلأت.

ماجد شعر بشيء ثقيل يستقر في صدره. لم يقل «آسف». الكلمات بدت فارغة. اكتفى بأن يبقي عينيه عليها، يستمع حقًا لأول مرة، لا يفكر في رد أو في روتين.

نجوى تابعت، عيناها ما زالتا على السحابة السوداء:

ـ والداي كانا في المدينة نفسها. أبي كان مهندسًا مدنيًا، وأمي معلمة لغة عربية. في البداية ظنا أن الأمر سيمر، كما مرت أزمات سابقة. أبي كان يقول في المكالمات: «الدولة ستسيطر على الوضع». ثم بدأت الرسائل تقصر. أمي صارت تتحدث بصوت مبحوح. في آخر رسالة صوتية، قالت لي فقط: «اعتني بنفسك يا بنتي... ولا ترجعي». بعد ذلك صمت تام.

صمتت طويلًا. ماجد لم يحرك ساكنًا. كان يعرف أن أي كلمة الآن قد تقطع الخيط الرفيع الذي يسمح لها بالكلام.

ـ كنتُ أعلم أن البكتيريا ستصل إليهم. كنتُ قد رأيت التحور في المختبر قبل الجميع. أرسلت التقارير. صرخت في الاجتماعات. قالوا لي إنني مبالغة، وإن الحرب أولوية أكبر. وعندما وصل الطاعون إلى مدينتهم... لم يكن هناك وقت حتى للوداع.

دمعة واحدة نزلت على خدها، لكنها لم تمسحها. تركتها تسقط على يديها المضمومتين في حضنها.

ماجد تحدث أخيرًا، بصوت منخفض جدًا:

ـ أنا أيضًا فقدت أخي. كان أصغر مني. في آخر مكالمة كان يبتسم لي كي لا أخاف. بعد أسبوعين لم يعد يرد. المدينة سقطت تحت السحابة، ثم جاء الطاعون.

نجوى أدارت رأسها نحوه لأول مرة منذ أن بدأت. عيناها كانتا محمرتين، لكن فيهما شيء جديد: اعتراف متبادل بالألم، لا مجرد زمالة في محطة فارغة.

ـ هل تحلم بهم؟

سألته بصوت خافت.

ـ كل ليلة. وأحيانًا أستيقظ وأظن أنني سمعت صوت أخي في الممر. ثم أتذكر أين نحن.

هي أومأت ببطء.

ـ أنا أحلم بلينا وهي تضحك. ثم يتحول الضحك إلى سعال... فأصحو.

جلسا في صمت بعد ذلك. لم يكن صمتًا فارغًا كالسابق. كان صمتًا مليئًا بما لم يعد مخفيًا: خسارة مشتركة، ووحدة أقل حدة مما كانت عليه قبل ساعة.

بعد قليل مدّت نجوى يدها وأطفأت إحدى الشاشات التي كانت تعرض بيانات قديمة. ثم قالت بهدوء:

ـ شكرًا لأنك استمعت. لم أتحدث عن هذا لأحد منذ... منذ أن وصلنا إلى هنا.

ماجد نظر إليها، ورأسه يومئ مرة واحدة.

ـ وأنا أيضًا. لأول مرة أقولها بصوت عالٍ.

خارج النافذة، السحابة السوداء كانت ثابتة. داخل الغرفة، شيء آخر كان يتحرك ببطء: جدار من الوحدة بدأ يتصدع، ليس بالكلمات الكبيرة، بل بذكريات ثقيلة شاركاها في هذا المساء الهادئ فوق قبر كوكب.

الفصل السابع

في اليوم التالي قررا أن يجربا مرة أخيرة.

جلسا معًا في غرفة الاتصالات منذ الصباح الباكر. نجوى أمام اللوحة الرئيسية، وماجد إلى جانبها يراقب الشاشات الثانوية. الغرفة كانت باردة أكثر من المعتاد، أو ربما هما من شعرا بالبرد.

ـ سنبدأ بالترددات العسكرية القديمة أولًا ـ قالت نجوى بصوت عملي يحاول إخفاء الاهتزاز. ـ ثم المدنيّة، ثم قنوات الطوارئ الدولية. كلها.

ماجد أومأ. لم يقل إنهما فعلا ذلك عشرات المرات من قبل. هو يعرف، وهي تعرف. لكنهما احتاجا إلى المحاولة كمن يفتح بابًا مغلقًا للمرة الأخيرة قبل أن يعترف بأنه لن ينفتح أبدًا.

ضغطت على الأزرار واحدًا تلو الآخر. الشاشات أضاءت بخطوط خضراء باهتة، ثم تحولت إلى ضوضاء بيضاء. أعادت ضبط التردد، رفعت الطاقة إلى الحد الأقصى المسموح، انتظرت.

لا شيء.

انتقلت إلى القناة التالية. صوت طنين خافت ملأ الغرفة ثواني، ثم عاد الصمت الإلكتروني الثقيل.

ماجد راقب وجهها من الجانب. كانت عضلات فكها مشدودة، وعيناها ثابتتين على الشاشة كأنها تستطيع بالقوة أن تُخرج إشارة من العدم.

ـ جربي قناة المريخ الاحتياطية ـ همس.

فعلت. الانتظار طال هذه المرة. دقيقة، ثم اثنتين. الشاشة بقيت سوداء إلا من نقاط ضوئية عشوائية لا تعني شيئًا.

بعد ساعة كاملة من المحاولات، توقفت نجوى فجأة. يداها ارتختا على اللوحة. الصوت الذي خرج منها كان هادئًا وقاسيًا في آن:

ـ انتهى.

ماجد لم يرد فورًا. نظر إلى الشاشات الميتة، ثم إلى النافذة الصغيرة التي تظهر جزءًا من الظلام الخارجي.

ـ ربما هناك تأخير في الإشارة. المسافات...

قاطعته دون أن ترفع صوتها:

ـ لا. أنت تعرف. وأنا أعرف. المراكز كلها صامتة منذ شهور. حتى الضوضاء البيضاء التي كانت تأتي أحيانًا... اختفت.

جلسا في الصمت الذي أعقب كلامها. هذه المرة كان الصمت مختلفًا. لم يعد مجرد غياب صوت. صار شيئًا ماديًا يملأ الغرفة، يضغط على الأذنين والصدر، يذكرهما في كل ثانية أنهما وحيدان فوق كوكب ميت.

ماجد مدّ يده وأغلق الأنظمة واحدًا تلو الآخر. الأضواء الخضراء انطفأت تدريجيًا، حتى لم يبقَ إلا الضوء الأحمر الصغير الذي يقول: «لا إشارات واردة».

ـ هذا هو الصمت الحقيقي ـ قالت نجوى بعد دقيقة طويلة. ـ ليس صمت المحطة... صمت العالم كله.

هو نظر إليها. لأول مرة منذ أيام بدت أصغر سنًا وأكثر هشاشة، رغم أن ملامحها لم تتغير.

ـ هل تندمين أننا جربنا اليوم؟

هزت رأسها ببطء.

ـ لا. كنت أحتاج أن أتأكد مرة أخيرة. الآن... أعرف.

نهضا معًا. قبل أن يخرجا، التفتت نجوى إلى اللوحة الميتة ومدّت يدها ولامستها لحظة قصيرة، كمن يودع شيئًا.

في الممر الخارجي كان الصمت أثقل. خطواتهما على الأرضية المعدنية بدت أعلى من المعتاد. لم يتحدثا طوال الطريق إلى غرفة الرصد. جلسا أمام النافذة الكبيرة، والأرض السوداء تدور تحتهما ببطء.

ماجد قال أخيرًا، بصوت منخفض:

ـ لم يعد هناك أحد ينتظر إشارتنا. ولا نحن ننتظر أحدًا.

نجوى لم ترد فورًا. ثم همست، وعيناها على السحابة:

ـ نعم. نحن فقط... وهذان الجدران، والروبوتات التي لا تفهم ما يعنيه الصمت.

مدّ يده دون أن ينظر إليها، وتركها على حافة المقعد بينها وبينه. بعد ثوانٍ قصيرة، وضعت هي يدها بجانب يده، دون أن تلمسها تمامًا، لكن قريبة بما يكفي.

الصمت كان مطبقًا.

لكنهما لم يعودا يواجهانه كل واحد وحده.

الفصل الثامن

جلسا في غرفة الرصد ساعات طويلة دون أن يتكلما.

النافذة الكبيرة كانت مفتوحة على امتدادها، والأرض تدور تحتهما ببطء كجثة هائلة ملفوفة بكفن أسود. الشاشات حولهما مطفأة كلها. لم يعد هناك ما يستحق المراقبة. الضوء الوحيد في الغرفة كان الأزرق الباهت المنعكس من السحابة البعيدة، ونقطة حمراء صغيرة على لوحة الإنذارات تقول إن كل شيء هادئ... وميت.

ماجد كان يجلس على الكرسي الأيسر، جسده مسترخٍ ظاهريًا، لكن أصابعه تضغط على حافة المقعد بين حين وآخر. نجوى إلى يمينه، ركبتاها مطويتان تحتها، ويداها مضمومتين في حضنها. منذ أن أغلقوا أنظمة الاتصال في اليوم السابق، لم يعودا يتحدثان عن الترددات أو الروبوتات أو الأكسجين. الكلمات بدت فجأة ثقيلة وزائدة.

بعد وقت طويل كسر هو الصمت، بصوت منخفض كأنه يخاطب النافذة لا هي:

ـ لم يعد هناك أحد.

الجملة خرجت بسيطة، لكنها حملت كل ما لم يستطيعا قوله خلال الأشهر الماضية. نجوى لم تلتفت إليه فورًا. ظلت تنظر إلى السواد، ثم أجابت بنفس الهدوء:

ـ أعرف.

صمت آخر. ثم أضافت، وكأنها تتمم اعترافًا مشتركًا:

ـ نحن الاثنان فقط. وفوقنا فراغ لا ينتهي، وتحتنا... قبر.

ماجد أدار رأسه نحوها ببطء. في الضوء الخافت بدت ملامحها أكثر وضوحًا مما كانت عليه منذ أسابيع: الشحوب، والخطوط الدقيقة حول عينيها، والشعر الأسود الذي انسدل على كتفها دون عناية. لم تكن جميلة بالمعنى التقليدي في تلك اللحظة، لكنها كانت حقيقية. الوحيدة المتبقية.

ـ هل تخافين؟ ـ سأل.

ابتسمت ابتسامة صغيرة مكسورة.

ـ أخاف من أن أعتاد هذا. أخاف من اليوم الذي يصبح فيه الصمت طبيعيًا، والأرض الميتة مجرد منظر معتاد. وأخاف أكثر... من أن أفقد حتى الخوف.

هو فهم. هو أيضًا كان يخاف الشيء نفسه.

مدّ يده ببطء، هذه المرة لم يتركها على حافة المقعد. وضعها فوق يدها بلطف. هي لم تسحب يدها. تركت أصابعه تغطي أصابعها، باردة مثله، لكنها حية.

جلسا هكذا وقتًا أطول. لم يتحدثا عن الماضي، ولا عن المستقبل، ولا عن الروبوتات التي ستعود غدًا أو بعد غد. اكتفيا بالنظر إلى الأرض السوداء، وهما يشعران للمرة الأولى منذ شهور أن الوحدة لم تعد كاملة.

بعد ساعة أو أكثر، همست نجوى دون أن تبعد عينيها عن النافذة:

ـ لو متنا هنا... هل سيلاحظ أحد؟

ماجد ضغط على يدها قليلاً.

ـ الروبوتات ستستمر في دوراتها. المحطة ستظل تدور. لكن لا... لن يلاحظ أحد. إلا نحن، قبل أن نذهب.

هي أدارت رأسها نحوه أخيرًا. عيناها كانتا لامعتين في الضوء الأزرق الخافت. لم تقل شيئًا. فقط نظرت إليه طويلاً، ثم أعادت رأسها إلى النافذة، ويدها ما زالت تحت يده.

التقارب لم يكن دراميًا. لم يكن اعترافًا كبيرًا أو عناقًا مفاجئًا. كان شيئًا أهدأ وأعمق: اعتراف ضمني بأنهما وحيدان تمامًا في هذا الكون المظلم، وأن هذه الوحدة المشتركة هي آخر ما تبقى لهما من البشرية.

خارج النافذة، السحابة السوداء استمرت في دورانها البطيء.

داخل الغرفة، يداهما بقيتا معًا، والوقت يمر دون أن يقيساه.

وللمرة الأولى منذ وصولهما إلى المحطة، لم يشعر أي منهما أنه يواجه النهاية وحيدًا.

الفصل التاسع

في الصباح التالي كان ماجد ينتظرها في عنبر الشحن.

الروبوت رقم 19 كان قد عاد قبل ساعات، ووقف في مكانه المعتاد ينتظر الفحص. لكن ماجد لم يبدأ الإجراءات الروتينية. كان يقف أمام لوحة التحكم، يحدق في الشاشات الفارغة كأنه يرى شيئًا آخر غير البيانات.

دخلت نجوى بهدوء. ملابسها مرتبة أكثر من الأيام السابقة، وشعرها مربوط بعناية نسبية. توقفت عند الباب عندما رأته واقفًا بلا حركة.

ـ ماذا حدث؟ هل هناك عطل؟

هز رأسه ببطء، ثم التفت إليها. في عينيه كان هناك شيء جديد: ليس يأسًا، بل فكرة تبدو كأنها أبقته مستيقظًا طوال الليل.

ـ اجلسي. أريد أن أقول لك شيئًا.

جلست على الكرسي المعدني القريب، وانتظارها كان هادئًا لكنه حذر. هو سار ذهابًا وإيابًا مرتين قبل أن يتوقف أمامها.

ـ الروبوتات هذه... ستستمر في الدوران بعدنا. أشهرًا، ربما سنوات، حتى تنفد طاقتها أو تتحطم في مكان ما. نحن نملأها ببيانات فارغة: عينات صخور، قراءات إشعاع، تقارير لا تعني شيئًا. لماذا لا نملأها بشيء آخر؟

نجوى رفعت حاجبيها قليلاً.

ـ مثل ماذا؟

ـ رسائل. معرفة. ما تبقى منّا. نختار أهم ما نعرفه عن البشرية: العلم، الفن، اللغة، التاريخ، حتى الأخطاء... ونحمّلها على الشرائط. نرسلها مع كل روبوت يغادر. كرسائل في زجاجات تُلقى في بحر لا نهائي. ربما تصل يومًا إلى أحد... أو إلى شيء.

صمتت. وجهها لم يتغير كثيرًا في البداية، لكن أصابعها ضغطت على ركبتيها.

ـ رسائل إلى من؟ لا أحد يستمع. لا أحد موجود.

ـ ربما ليس الآن. ربما بعد ألف سنة، أو مليون. حضارة أخرى. أو بقايا بشر نجت في مكان ما لم نصل إليه. حتى لو لم يصل أحد... سنكون قد فعلنا شيئًا غير الجلوس وانتظار النفاد.

نجوى أدارت وجهها نحو الروبوت الواقف صامتًا في الزاوية. ضوءه الأخضر الصغير كان يومض بانتظام كقلب آلي.

ـ أنت تتحدث كأننا ما زال لدينا وقت طويل. الأكسجين محسوب. الطاقة محسوبة. نحن نموت ببطء، وماجد، وأنت تريد أن نقضي الأيام المتبقية في تسجيل محاضرات وموسيقى وأشعار؟

صوته جاء أكثر هدوءًا، لكنه ثابت:

ـ أريد أن نقضيها في شيء يشبه المعنى. الروتين يحفظنا من الجنون، نعم. لكن هذا... هذا قد يحفظ شيئًا منّا بعد الجنون.

هي صمتت وقتًا أطول. ثم قالت بصوت أخفض:

ـ وأخطاؤنا؟ الحرب؟ الطاعون؟ هل نرسلها أيضًا؟ أم نختار فقط الأشياء الجميلة ونكذب على من قد يجد الرسائل؟

ـ الاثنان. الجمال والقبح. حتى يعرفوا من كنا حقًا.

نجوى نهضت ببطء، وسارت نحو الروبوت. وضعت يدها على سطحه البارد لحظة، ثم سحبتها.

ـ أحتاج إلى وقت لأفكر. الفكرة... ثقيلة. وأخاف أن تفتح أبوابًا داخلنا كنا قد أغلقناها.

ماجد أومأ. لم يضغط.

ـ خذي وقتك. الروبوتات لن تذهب كلها غدًا. لدينا أيام بعد.

هي التفتت إليه قبل أن تخرج. في عينيها كان هناك تردد واضح، لكنه لم يعد رفضًا قاطعًا.

ـ سأفكر. لكن لا تبدأ بدون موافقتي.

ـ لن أفعل.

خرجت، وتركته وحيدًا مع الروبوت رقم 19. ماجد نظر إلى الآلة الصامتة، ثم همس لها كأنها تفهم:

ـ ربما أنتِ آخر من يحملنا.

الضوء الأخضر استمر في الوميض بانتظام.

والفكرة، الثقيلة والمخيفة والمضيئة في آن، بقيت معلقة في هواء العنبر البارد، تنتظر قرارها.

الفصل العاشر

بدأ العمل في اليوم الثالث بعد اقتراحه.

اختارا غرفة البيانات القديمة، تلك التي كانت تستخدم سابقًا لتخزين التقارير العلمية قبل أن تصبح بلا معنى. الشاشات الكبيرة أُضيئت من جديد، والروبوتات الصغيرة المساعدة نُقلت إلى الزاوية لتعمل كوحدات تخزين متنقلة. الهواء في الغرفة كان جافًا، ورائحة المعدن والكهرباء القديمة تملأه.

ماجد كان يقف أمام قائمة طويلة كتبها بخط يده على اللوح الإلكتروني. نجوى جلست على الكرسي المقابل، ذراعاها متقاطعتان، ووجهها يحمل تعبيرًا لم يعد مجرد تردد.

ـ نبدأ بالعلم ـ قال هو وهو يمرر إصبعه على القائمة. ـ الفيزياء، الكيمياء، البيولوجيا، الرياضيات. الأساسيات التي بني عليها كل شيء. إذا وصل أحد إلى هذه الرسائل، يجب أن يعرف كيف يعمل الكون كما فهمناه.

نجوى هزت رأسها ببطء.

ـ العلم وحده؟ سيبدو أننا كنا آلات تحسب وتقيس فقط. أين الفن؟ أين الموسيقى التي كانت تجعل الناس يبكون أو يرقصون؟ أين الروايات التي قالت ما لم تستطع المعادلات قوله؟

ـ الفن يأتي بعد. الأولوية للمعرفة التي تبني. لو بدأوا من الصفر، سيحتاجون إلى أينشتاين قبل شكسبير.

ضحكت ضحكة قصيرة جافة.

ـ أينشتاين لم يمنع القنابل. شكسبير لم يطلق الصواريخ. لكن كليهما كانا جزءًا مما كنا. إذا أرسلنا العلم فقط، فكأننا نقول إن أجمل ما فينا هو قدرتنا على التدمير والحساب.

ماجد صمت لحظة، ثم قال بصوت أكثر حدة مما قصد:

ـ وأنت تريدين أن نملأ الشرائط بقصائد وسمفونيات بينما نتجاهل أن معظم تاريخنا كان حربًا ومرضًا وجوعًا؟ هل نكذب عليهم؟ نرسل لهم صورة وردية عن بشرية لم تكن موجودة؟

ـ لا. لكن لا نختصرها في معادلات أيضًا. التاريخ يجب أن يُحفظ، نعم. بما فيه من أسود. لكن الموسيقى... الموسيقى كانت آخر ما تمسك به الناس في الملاجئ قبل أن يصمتوا. أعرف ذلك من التسجيلات الأخيرة التي وصلتنا. كانوا يشغّلون بيتهوفن وأم كلثوم وهم يموتون.

نظر كل واحد إلى الآخر عبر الطاولة. التوتر كان حقيقيًا هذه المرة، ليس غضبًا شخصيًا، بل صراعًا على ما يستحق أن يبقى من جنس كامل.

ماجد سحب كرسيًا وجلس. صوته انخفض، لكنه بقي ثابتًا:

ـ حسنًا. نقسم. نصف المساحة للعلم والتاريخ... بما فيه الحروب والطاعون وكيف وصلنا إلى هنا. والنصف الآخر للفن واللغة والموسيقى. لا نختار الأجمل فقط، ولا الأقبح فقط. نختار ما كنا عليه فعلًا.

نجوى ظلت صامتة ثواني طويلة. ثم أفرجت عن ذراعيها، ومدت يدها إلى اللوح الإلكتروني.

ـ أضف اللغة. كل اللغات التي نستطيع حفظ قواعدها ونماذجها. إذا لم يستطيعوا قراءة ما نكتب، فكل شيء آخر بلا فائدة.

أومأ.

ـ والدين؟

سألت فجأة. عيناها كانت حادة.

ماجد تردد.

ـ نذكره كجزء من التاريخ. المعتقدات، الصراعات التي أشعلتها، والجمال الذي أنتجته أحيانًا. لا نبشر، ولا ندين. فقط... نروي.

هي أضافت سطرًا جديدًا إلى القائمة، ثم رفعت عينيها إليه.

ـ سنختلف كثيرًا خلال الأيام القادمة.

ـ أعرف. لكن الاختلاف أفضل من الصمت الذي كنا فيه.

ابتسمت ابتسامة صغيرة متعبة، لأول مرة منذ أن دخلت الغرفة.

ـ ابدأ إذن. سأحضر تسجيلات الموسيقى من الأرشيف القديم. وأنت جهز الملفات العلمية الأساسية.

نهضا معًا. الروبوتات الصغيرة في الزاوية أضاءت أضواؤها الخضراء كأنها تنتظر الأمر.

العمل بدأ.

ليس روتينًا هذه المرة، بل شيئًا يشبه الوصية.

والنقاش الحاد الذي دار بينهما لم يفرقهما، بل جعل المسافة بينهما أقل مما كانت عليه في الصباح.

الفصل الحادي عشر

كان الليل قد تقدم عندما توقف العمل.

الشاشات ما زالت تعرض قوائم الملفات التي اختاراها خلال النهار: معادلات، مقطوعات موسيقية، خرائط قديمة، تسجيلات صوتية بلغات مختلفة. الغرفة كانت هادئة إلا من الطنين الخفيف لأجهزة التبريد. نجوى كانت تراجع قائمة نهائية على اللوح الإلكتروني، بينما ماجد يقف عند النافذة الضيقة يحدق في الظلام الخارجي.

فجأة قال، دون أن يلتفت إليها:

ـ أنا لم أكن مجرد مهندس طاقة شمسية.

نجوى رفعت رأسها ببطء. لم تسأله، بل انتظرت.

هو استدار، وظهوره إلى النافذة، ووجهه نصف مضاء بالضوء الأزرق الخافت.

ـ المشروع الذي عملت فيه على الأرض... قبل أن أنتقل إلى المحطة، كان له جانب آخر. لم أكن أعرف التفاصيل كلها في البداية. كنا نطور خلايا عالية الكفاءة، نعم، لكن التمويل جاء جزئيًا من جهات عسكرية. كانوا يريدون مصادر طاقة مستقلة للمنشآت السرية وللأقمار الصناعية التجسسية. أنا صممت الأنظمة. هم استخدموها.

صوته كان هادئًا، لكنه ثقيل كأنه يحمله منذ سنوات.

ـ عندما بدأت الحرب، رأيت تقارير عن محطات طاقة محمولة في الجبهات. بعضها كان يعتمد على التقنية التي عملت عليها. لم أطلق صاروخًا، ولم أضغط على زر... لكنني ساهمت في إبقاء الآلة تعمل لفترة أطول. بعد ذلك جاء الشتاء النووي، ثم الطاعون. وأنا هنا، أحمل هذا في داخلي كل يوم.

نجوى وضعت اللوح جانبًا. عيناها كانت ثابتة عليه، لا تلوم ولا تتعاطف بشكل مفرط، فقط تستمع كما استمع هو إليها من قبل.

ـ عائلتي... ـ تابع، وصوته انخفض أكثر. ـ أخي الأصغر كان في مدينة قريبة من إحدى القواعد. عندما سقطت الصواريخ الأولى، انقطع الاتصال. بعد أسابيع عرفت أنها مُحيت بالكامل. والدتي كانت هناك أيضًا. أبي كان قد مات قبل الحرب بسنتين. بقيت أنا... والشعور بأنني ساعدت، ولو من بعيد، في صنع الظلام الذي ابتلعهم.

جلس على الكرسي المقابل لها. يديه كانتا مرتجفتين قليلاً وهو يضعهما على ركبتيه.

ـ كل مرة أنظر إلى السحابة السوداء أسأل نفسي: لو رفضت العمل في ذلك المشروع، هل كان شيء سيتغير؟ الجواب المنطقي هو لا. لكن الشعور... الشعور لا يعترف بالمنطق.

نجوى صمتت وقتًا طويلًا. ثم مدت يدها عبر الطاولة ووضعتها فوق يده، هذه المرة بثبات أوضح مما فعلت في الليالي السابقة.

ـ أنت لم تختر الحرب. ولم تختر الطاعون. اخترت أن تعمل في شيء ظننته سيضيء العالم، فاستخدمه آخرون ليطيلوا الظلام. هذا ليس ذنبك وحدك. هو ذنب الجميع الذين صمتوا أو شاركوا أو لم يفعلوا ما يكفي.

هو نظر إلى يدها فوق يده، ثم رفع عينيه إليها.

ـ أردت أن تعرف. قبل أن نكمل هذه الرسائل. لأنني إذا كنت سأضع شيئًا منّي في الشرائط... يجب أن يكون حقيقيًا. بما فيه هذا الثقل.

هي ضغطت على يده بلطف.

ـ سنضعه إذن. ليس كاعتراف بالذنب، بل كجزء من القصة. القصة الكاملة. حتى لو وصل أحد يومًا إلى هذه الرسائل، سيعرف أننا لم نكن أبطالًا ولا وحوشًا... كنا بشرًا معقدين، نخطئ ونحاول أن نصلح بعد فوات الأوان.

ماجد أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما. شيء من الثقل بدا أخف قليلاً، ليس لأنه اختفى، بل لأنه صار مشتركًا.

ـ شكرًا لأنك استمعت دون أن تحكمي.

ـ وأنت استمعت إليّ من قبل دون أن تفعل. نحن متساويان في هذا على الأقل.

جلسا هكذا في الغرفة الهادئة، الملفات مفتوحة أمامهما، والماضي الثقيل صار الآن جزءًا من الوصية التي يكتبانها معًا. خارج النافذة، الظلام كان كما هو. لكن داخل الغرفة، الاعتراف جعل المسافة بينهما أقرب مما كانت عليه قبل ساعة.

الفصل الثاني عشر

حدث الانهيار في منتصف الليل.

كانا يعملان على تسجيل جزء من التاريخ: مقاطع عن الحروب الأخيرة، والطاعون، وكيف انهارت المدن واحدة تلو الأخرى. نجوى كانت تقرأ النص الذي أعداه معًا بصوتها الهادئ أمام الكاميرا الصغيرة، بينما ماجد يراقب المستويات على الشاشة.

فجأة توقف صوتها في منتصف جملة.

الشاشة أظهرت وجهها يتجمد، ثم تتشقق ملامحه ببطء. اليد التي كانت تمسك الورقة ارتجفت، والورقة سقطت على الأرض. حاولت أن تتنفس بعمق، لكن الهواء بدا كأنه لا يصل إلى رئتيها. عيناها اتسعتا، ثم امتلأتا بالدموع فجأة كسد انهار.

ـ لا أستطيع... ـ خرج الصوت مبحوحًا ومكسورًا. ـ لا أستطيع أن أقول هذا مرة أخرى. لينا... أمي... كلهم... وأنا هنا أسجل كأنني أروي قصة عن غرباء.

جسمها انحنى إلى الأمام، ويداها غطتا وجهها. البكاء جاء صامتًا في البداية، ثم تحول إلى نوبات متتالية هزت كتفيها. لم تكن دموعًا هادئة. كانت انهيارًا كاملًا احتجزته شهورًا طويلة خلف جدار من الروتين والعمل والتظاهر بالقوة.

ماجد انتقل من مكانه فورًا. ركع أمام كرسيها، ورفع يديه بحذر كأنه يقترب من شيء هش جدًا. ثم احتضنها.

في البداية كانت متيبسة. ثم استسلمت. وجهها انغرس في كتفه، ويداها أمسكتا بملابس ظهره بقوة، كأنها تخشى أن تسقط إذا أفلته. هو أحاطها بذراعيه تمامًا، إحدى يديه على شعرها، والأخرى على ظهرها، ولم يقل شيئًا. لم يقل «لا بأس» أو «ستكونين بخير». اكتفى بأن يكون موجودًا، ثابتًا، بينما تنهار هي أخيرًا.

دقائق مرت. البكاء كان عنيفًا ثم بدأ يهدأ تدريجيًا إلى شهقات متباعدة. هو ما زال يحتضنها، ذقنه فوق رأسها، وعيناه مغلقتان.

عندما رفعت وجهها أخيرًا، كانت عيناها محمرتين ومنتفختين، ووجنتاها مبللتين. نظرت إليه من مسافة قريبة جدًا، وصوتها جاء خافتًا ومبحوحًا:

ـ أنا متعبة يا ماجد. متعبة من التظاهر بأنني قوية. متعبة من أن أحملهم وحدي كل ليلة.

هو أزاح خصلة شعر ملتصقة بخدها برفق، وترك يده على جانب وجهها.

ـ لستِ وحدك بعد الآن. ولا أنا.

نظرت عيناهما في بعضهما وقتًا طويلًا. المسافة التي كانت تفصل بين الزميلين في محطة فارغة اختفت فجأة. لم يعد هناك روتين يحميهما، ولا عمل يؤجل الاعتراف. كان هناك فقط هما، في هذه الغرفة المعتمة، فوق كوكب ميت، يمسك أحدهما بالآخر كآخر شيء حي في الكون.

هي مالت نحوه أولًا. أو هو. لم يعد واضحًا. الشفاه التقت بهدوء، لا بعجلة الجوع بل ببطء الاعتراف. القبلة كانت مالحة من دموعها، ودافئة من جسده، وطويلة بما يكفي لتشعرا أن الزمن توقف للحظة.

عندما انفصلا، بقيت جباههما متلامسة. أنفاسهما مختلطة. يداه ما زالتا حولها، ويداها على صدره.

ـ هذا... ـ همست هي.

ـ أعرف ـ أجاب هو. ـ تحول كل شيء.

لم يحتاجا إلى شرح أكثر. الزمالة التي بدأت بالخوف المشترك والذكريات الثقيلة صارت شيئًا أعمق في هذه الليلة. حبًا هشًا ويائسًا وأملًا في آن، وُلد في آخر مكان كان يمكن أن يولد فيه.

احتضنها مرة أخرى، أقوى هذه المرة. هي أغلقت عينيها واستندت إليه تمامًا.

خارج الغرفة، المحطة كانت تدور في صمتها المعتاد.

داخلها، شيء جديد كان يتنفس أخيرًا بين اثنين لم يعودا وحيدين.

الفصل الثالث عشر

الأيام التالية صارت مختلفة بهدوء.

العمل على تحميل المعرفة استمر بلا توقف تقريبًا. كانا يقضيان ساعات طويلة في غرفة البيانات، يقسمان الملفات، يراجعان التسجيلات، يبرمجان الروبوتات واحدًا تلو الآخر. لكن بين المهمة والأخرى ظهرت لحظات لم تكن موجودة من قبل.

في الصباح كانا يتناولان الطعام معًا في غرفة الطعام. لم يعد كل واحد يحمل صينيته إلى زاويته. جلسا على الجانب نفسه من الطاولة الطويلة، أحيانًا يتحدثان عن الملفات التي سيراجعانها، وأحيانًا يأكلان في صمت مريح لا يحتاج إلى ملء. ماجد كان يقطع لها قطعة الخبز الصناعي أحيانًا دون أن يطلب، وهي كانت تدفع إليه كوب الشاي عندما تنسى أن تصبه لنفسها.

ذات بعد ظهر تعطل أحد الروبوتات الصغيرة أثناء نقل البيانات. الضوء الأحمر أضاء فجأة، والجهاز توقف في منتصف الممر. ماجد ركع ليفحصه، ونجوى جلست القرفصاء إلى جانبه. أيديهما تلامست أكثر من مرة وهما يفتحان اللوحة الجانبية. عندما اكتشف العطل — سلك دقيق انقطع من الاهتزاز المتكرر — أصلحه هو بينما كانت تمسك بالمصباح الصغير. بعد أن انتهى، نظرت إليه وابتسمت ابتسامة صغيرة نظيفة من التعب.

ـ صرت ماهرة في إمساك المصابيح.

ـ وصرت أنت أسرع في إصلاح الأشياء التي تنكسر.

ضحكا معًا، ضحكة خافتة قصيرة، ثم عادا إلى العمل.

في المساء، بعد أن يغلقان الأنظمة، كانا يجلسان أحيانًا في غرفة الرصد دون أن يشغلا أي شاشة. يحدقان في الأرض السوداء، أو يغلقان أعينهما ويستمعان إلى همهمة المحطة. الصمت بينهما لم يعد ثقيلًا أو محرجًا. صار مساحة مشتركة يستريحان فيها. أحيانًا كانت تضع رأسها على كتفه، وأحيانًا هو يمسك بيدها دون أن ينظر. لم يكونا بحاجة إلى كلام كثير.

ذات ليلة، بينما كانا يراجعان قائمة الموسيقى التي ستُحمَّل، شغّلت هي مقطعًا قصيرًا من سيمفونية قديمة. اللحن ملأ الغرفة بهدوء. ماجد توقف عن الكتابة، واستمع. هي أيضًا. عندما انتهى المقطع، لم يعلقا. اكتفيا بأن نظر كل واحد إلى الآخر، وابتسم بنفس القدر من التعب والحنان.

العمل كان مستمرًا وشاقًا. الروبوتات تُبرمج واحدًا تلو الآخر، والشرائط تمتلئ تدريجيًا بما تبقى من البشرية. لكن بين الملفات والمعادلات والتسجيلات، كانت الألفة اليومية تنمو كشيء حي في مكان ميت.

في أحد الصباحات، بينما كانا يأكلان، قال هو فجأة:

ـ لو كان لدينا وقت أطول... كنت أود أن أطبخ لك شيئًا حقيقيًا. لا هذا الطعام الصناعي.

هي نظرت إليه فوق حافة الكوب، وعيناها تبتسم.

ـ وأنا كنت أود أن أسمعك تضحك أكثر. ضحكتك الحقيقية، لا هذه القصيرة المتعبة.

هو أمسك يدها عبر الطاولة، وتركها لحظة.

ـ ربما نضحك أكثر قبل النهاية.

ـ ربما.

ثم عادا إلى صمتهما المريح، والأيدي ما زالت متلامسة، والعمل ينتظرهما في الغرفة المجاورة، لكن دون أن يشعر أي منهما أنه يؤديه وحيدًا بعد الآن.

الفصل الرابع عشر

غرفة التسجيل كانت أصغر الغرف، وكانت الأكثر هدوءًا الآن.

أضيئت كاميرا واحدة فقط، وميكروفون صغير معلق أمام الكرسي. الشاشات حولهما مطفأة إلا من عداد الوقت الأحمر الذي ينتظر الإشارة. ماجد ونجوى جلسا متقابلين أولاً، يراجعان الملاحظات الأخيرة، ثم بدأ التسجيل.

نجوى جلست أمام الكاميرا أولًا. الضوء الأبيض الناعم وقع على وجهها، فأظهر الشحوب والتعب والصدق معًا. ماجد وقف خلف الكاميرا، يراقب الشاشة الصغيرة، ومستعد لأن يوقف التسجيل إذا طلبت.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم بدأت:

ـ اسمي نجوى سليمان. مهندسة أنظمة واتصالات. كنت من أوائل من رصدوا تحور البكتيريا بعد الحرب النووية. أرسلت التقارير. حذرت. لم يُستمع إليّ بما يكفي.

صوتها كان ثابتًا في البداية، ثم بدأ يرتجف قليلاً عندما وصلت إلى الجزء الشخصي.

ـ الطاعون لم يأتِ كعدو خارجي. جاء من داخل الأرض التي أشعلناها. رأيت أختي لينا تموت من بعيد، عبر رسالة قصيرة من زميلة. رأيت والديّ يختفيان في الصمت. أعرف أسماء مدن كاملة لم يعد لها وجود. أعرف

رائحة الخوف في المكالمات الأخيرة قبل أن تنقطع. إذا وصلتم إلى هذه الرسالة... اعلموا أن البشرية لم تمت بصمت. ماتت وهي تحاول، وتفشل، وتحب، وتبكي. وأنا واحدة من آخر من يشهدون.

توقفت. الدموع نزلت على خديها، لكنها لم تمسحها. نظرت مباشرة إلى العدسة وأضافت بصوت أخفض:

ـ أرجوكم... إن كنتم موجودين، لا تكرروا ما فعلناه. لا تظنوا أن القوة أو الإيمان أو العلم وحدها كافية. نحن احتجنا إلى الرحمة أكثر مما احتجنا إلى أي شيء آخر، ولم نجدها بما يكفي.

أشارت بيدها. ماجد أوقف التسجيل. هي نهضت ببطء، ومسح وجهها بكفيها، ثم ابتسمت له ابتسامة صغيرة مكسورة.

ـ دورك.

جلس هو مكانها. الضوء نفسه سقط على وجهه. بدا أكبر سنًا فجأة، أو أكثر صدقًا. نظر إلى العدسة ثواني صامتة قبل أن يبدأ:

ـ اسمي ماجد زاهر. مهندس طاقة. أحد آخر اثنين يعرفان أن البشرية كانت هنا.

صوته كان هادئًا وعميقًا.

ـ لا أعرف من أنتم. لا أعرف إن كنتم بشرًا أو شيئًا آخر، أو إن كنتم ستجدون هذه الرسالة بعد ألف سنة أو مليون. لكنني أكتبها لكم. نحن لم نكن آلهة، ولم نكن شياطين. كنا جنسًا قادرًا على صنع الجمال والقبح بنفس اليدين. بنينا أهرامات وسيمفونيات ومدنًا تضيء الليل، ثم أشعلنا حروبًا أحرقت السماء، وأطلقنا بكتيريا قتلت ما تبقى. الآن لم يبقَ منا إلا صوتان في محطة فضاء تدور حول قبر كوكب.

توقف لحظة، ثم تابع:

ـ إذا وجدتم هذه الشرائط، خذوا العلم والفن واللغة. خذوا أخطاءنا أيضًا. وتذكروا أن آخر ما فعله اثنان منا قبل أن يصمتا... هو محاولة إبقاء شيء من المعنى حيًا. أحببنا. خفنا. تمسكنا ببعضنا. وهذا، ربما، أهم ما يمكن أن نتركه لكم.

أشار إلى الكاميرا أن تتوقف. الصمت ملأ الغرفة بعد انطفاء الضوء الأحمر.

نجوى اقتربت منه، ووقفت خلف الكرسي، ووضعت يديها على كتفيه. هو رفع إحدى يديه وغطى يدها.

ـ هل كان كافيًا؟ ـ همس.

ـ كان حقيقيًا ـ أجابت. ـ وهذا يكفي.

خرجا من غرفة التسجيل معًا. الشرائط كانت الآن تحمل صوتيهما ووجهيهما. جزء مؤلم من الطاعون، ورسالة مفتوحة إلى أي حضارة قد تأتي بعدهما. الوصية صارت أكثر شخصية، وأكثر ثقلًا، وأكثر حيوية في آن.

في الممر الخارجي، أمسك كل واحد بيد الآخر دون أن يتكلما. العمل ما زال طويلاً، لكن الرسائل الشخصية كانت قد أُرسلت إلى المستقبل... أو إلى الفراغ.

الفصل الخامس عشر

الخلاف انفجر في وقت متأخر من بعد الظهر.

كانا يراجعان القائمة النهائية لما سيُحمَّل على الدفعة الأخيرة من الروبوتات. الشاشة الكبيرة تعرض عمودين: «ما نحتفظ به» و«ما نحذفه». نجوى كانت واقفة، ذراعاها متقاطعتان، وماجد يجلس أمام اللوح الإلكتروني ويداه مضغوطتان على حافته.

ـ لا أريد أن نرسل صورة كاذبة ـ قال هو بصوت مرتفع أكثر من المعتاد. ـ إذا حذفنا الحروب والطاعون والانهيار، فكأننا نقول إن البشرية كانت جميلة فقط. هذا كذب. والكذب في الوصية أسوأ من الصمت.

نجوى ردت بسرعة، وعيناها مشدودتان:

ـ وأنا لا أريد أن تكون الوصية شهادة اتهام. إذا ملأنا الشرائط بالفشل والدمار والخوف، فماذا سيجد من يصل إليها؟ صورة جنس استحق الفناء؟ هل هذا ما نريد أن نتركه؟ الجمال كان حقيقيًا أيضًا. الموسيقى، الاكتشافات، لحظات الحب، الأطفال الذين كانوا يضحكون قبل أن يصمت كل شيء. لماذا ندفنه تحت الرماد؟

ـ لأن الرماد هو ما بقينا عليه في النهاية! ـ صوت ماجد ارتفع أكثر. ـ نحن نجلس في محطة فوق كوكب ميت بسبب ما فعلناه. إذا لم نذكر كيف وصلنا إلى هنا، فأي معنى للرسالة؟ «كنا رائعين ثم اختفينا فجأة»؟ هذا سخييف.

ـ وأنت تريد أن نقول: «كنا وحوشًا فاستحققنا الموت»؟ هذا أسخف. لينا لم تكن وحشًا. والداي لم يكونوا. أخوك لم يكن. الملايين الذين أحبوا وزرعوا وكتبوا وعزفوا لم يكونوا. الحرب والطاعون لم يمحوا كل شيء جميل فينا... هما فقط انتصرا في الجولة الأخيرة.

الصمت الذي أعقب كلامها كان حادًا. كلاهما كان يتنفس بسرعة. الغرفة فجأة صارت ضيقة.

ماجد أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما وقال بصوت أخفض لكنه ما زال متوترًا:

ـ أنا لا أقول إنهم كانوا وحوشًا. أقول إننا إذا أخفينا الفشل، فسنخون الحقيقة. والحقيقة هي كل ما تبقى لنا لنعطيه.

نجوى اقتربت من الطاولة، ويداها ترتكزان عليها.

ـ والحقيقة ليست سوداء فقط. الحقيقة رمادية. فيها الضوء والظلام معًا. إذا أرسلنا أحدهما دون الآخر، فنحن نكذب مرتين.

نظر كل واحد إلى الآخر طويلاً. الغضب كان حقيقيًا، لكنه لم يكن موجهًا ضد الشخص المقابل بقدر ما كان موجهًا ضد الاستحالة نفسها: كيف تلخص جنسًا كاملًا في شرائط محدودة؟

بعد دقائق طويلة من الصمت، جلس ماجد إلى الخلف في كرسيه. صوته جاء متعبًا هذه المرة:

ـ اقترحي حلًا وسطًا إذن.

نجوى سحبت كرسيًا وجلست أمامه. فكرت قليلًا، ثم قالت:

ـ نقسم المساحة بالتساوي. نصف للجمال: الفن، الموسيقى، الاكتشافات، لحظات الإنسانية العادية. والنصف الآخر للحقيقة الكاملة: الحروب، الأخطاء، الطاعون، كيف انتهينا. لا نزين ولا نجلد. نروي الاثنين بنفس القدر من الصدق. ونضيف في المقدمة جملة واحدة فقط: «هذا ما كنا عليه... بكل تناقضاتنا».

ماجد نظر إلى الشاشة، ثم إليها. ببطء أومأ رأسه.

ـ جملة المقدمة... أوافق عليها. والنصف بالنصف أيضًا. لكن نؤكد في التسجيل أن الفشل لم يكن قدرًا حتميًا... كان اختيارًا متكررًا.

ـ مقبول. ونؤكد أيضًا أن الجمال لم يكن وهمًا... كان حقيقيًا حتى آخر لحظة.

امتدت يداه عبر الطاولة. أمسكت هي بهما. الغضب انحسر تدريجيًا، تاركًا مكانه لإجهاد مشترك وفهم أعمق.

ـ سنختلف مرة أخرى قبل النهاية ـ همس هو.

ـ أعرف ـ أجابت. ـ وهذا أفضل من أن نتفق على كذبة.

عادا إلى القائمة معًا. حذفا بعض المقاطع، وأضافا أخرى. الحل الوسط لم يكن مثاليًا، لكنه كان صادقًا بقدر ما يستطيعان.

خارج الغرفة، المحطة كانت تدور كعادتها.

داخلها، الوصية صارت أقرب إلى الاكتمال... وأقرب إلى أن تكون صورة حقيقية عن بشرية لم تكن ملائكية ولا شيطانية، بل بشرية فقط.

الفصل السادس عشر

في اليوم الذي اكتمل فيه تحميل معظم الشرائط، كان الصباح صافيًا داخل المحطة بشكل غريب.

الروبوتات تصطف في عنبر الشحن كجنود صامتين. أحد عشر روبوتًا من أصل خمسة عشر كانت قد استقبلت حمولتها الكاملة: العلم والفن والتاريخ والرسائل الشخصية والموسيقى واللغات والاعترافات. الأضواء الخضراء على صدورها كانت تضيء بثبات، كأنها تعرف أنها صارت تحمل أكثر من بيانات.

ماجد ونجوى وقفا في منتصف العنبر، ينظران إلى الصف. العمل الذي استمر أسابيع انتهى تقريبًا. لم يعد هناك ملفات تنتظر المراجعة، ولا نقاشات حادة حول ما يُحذف أو يُبقى. الشرائط أُغلقت، والبرامج أُثبتت، والروبوتات جاهزة للمغادرة في الوقت المحدد.

نجوى كانت أول من تكلم، بصوت هادئ يختلط فيه الإرهاق بشيء آخر:

ـ انتهى. معظمها... انتهى.

ماجد أومأ. شعر بخفة مفاجئة في صدره، كأن وزنًا كبيرًا رُفع عنه. في الوقت نفسه كان هناك ثقل جديد يستقر في مكان أعمق: ثقل الإدراك بأنهما فعلاً قد أكملا الوصية، وأن ما تبقى الآن هو الانتظار والإطلاق... ثم الفراغ.

ـ أشعر كأنني فرغت من شيء كنت أحمله سنوات ـ قال وهو يمسح جبينه. ـ وفي الوقت نفسه... كأنني صرت أثقل. كأني أحمل الآن مسؤولية أن هذه الرسائل هي كل ما سيبقى.

هي اقتربت منه حتى لامست كتفها كتفه.

ـ أنا أيضًا. الخفة من انتهاء العمل. والثقل من معرفة أن العمل كان آخر شيء يربطنا بما كنا عليه. الآن... لم يعد لدينا إلا بعضنا وبعض الروبوتات التي سترحل.

ساروا ببطء بين الصف. لمس ماجد سطح أحد الروبوتات بيده. المعدن كان باردًا، لكن الفكرة التي يحمله كانت دافئة وثقيلة معًا.

ـ بعد أيام قليلة ستغادر هذه الآلات. ستدخل في مدارات بعيدة أو تتيه في الفراغ. وربما لا يجدها أحد أبدًا. ومع ذلك... أشعر بأننا فعلنا الصواب.

نجوى أمسكت بيده.

ـ فعلنا ما استطعنا. وهذا أكثر مما فعله معظم من ماتوا قبلنا. هم ماتوا في الفوضى. نحن... حاولنا أن نترك أثرًا.

وقفا أمام الروبوت الأخير الذي اكتمل تحميله قبل ساعة. الضوء الأخضر انعكس على وجهيهما. في تلك اللحظة شعرا معًا بالشيء نفسه: فراغ بعد امتلاء، وامتلاء بعد فراغ. الخفة من انتهاء المهمة الشاقة، والثقل من مواجهة ما يأتي بعد النهاية.

ـ هل نخاف الآن أكثر أم أقل؟ ـ سألته هي فجأة.

فكر قليلًا قبل أن يجيب.

ـ أقل من الخوف القديم... وأكثر من نوع جديد. لم نعد نخاف الصمت وحده. صرنا نخاف اليوم الذي نطلق فيه آخر روبوت... ثم نبقى نحن الاثنان فقط مع السؤال: ماذا بعد؟

هي ضغطت على يده.

ـ بعد... نقرر معًا. كما فعلنا حتى الآن.

خرجا من العنبر تاركين الروبوتات في صفها الهادئ. في الممر الخارجي كان الضوء خافتًا كالعادة، لكن شعورهما بالفضاء حولهما كان مختلفًا. العمل الكبير اكتمل. الوصية صارت جاهزة في معظمها.

في غرفة الرصد جلسا أمام النافذة كما فعلا مرات كثيرة. الأرض السوداء كانت هناك. لكن هذه المرة لم ينظرا إليها كقبر فقط، بل كمكان كان يستحق أن يُروى عنه شيء قبل أن يُنسى تمامًا.

الخفة والثقل امتزجا في صدريهما.

ولم يعودا يحتاجان إلى كلمات كثيرة ليصفاه.

كان يكفي أنهما يشعران به معًا.

الفصل السابع عشر

الليلة التي سبقت الإطلاق الأخير كانت أطول مما ينبغي، وأهدأ مما ينبغي.

أكملا تحميل الروبوتات الأربعة المتبقية قبل منتصف الليل. العنبر أُغلق، والأضواء الخضراء صارت صفًّا كاملًا من خمسة عشر روبوتًا جاهزًا. لم يعد هناك عمل يؤجل اللحظة. عادا إلى غرفة الرصد، وأطفآ كل

الشاشات، وجلسا على الأرض هذه المرة، ظهراهما إلى الجدار، والنافذة الكبيرة أمامهما تعرض الأرض السوداء كالعادة.

الصمت امتد. لم يكن صمت الإرهاق فقط، بل صمت من يعرفان أن غدًا سيتغير كل شيء.

ماجد كان أول من تكلم، صوته منخفض وقريب منها:

ـ نجوى... أنا أحبك.

الكلمات خرجت بسيطة، بلا مقدمات طويلة. هو لم ينظر إليها في البداية، بل ظل يحدق في السحابة السوداء. ثم أدار وجهه نحوها.

ـ ليس حب اليأس فقط، ولا حب من يجد الشخص الوحيد المتبقي. أحبك أنت. صوتك عندما تغضبين، وطريقتك عندما تنهارين ثم تعودين، ويدك عندما تمسك يدي في الصمت. أحب أنني صرت أخاف أقل عندما تكونين بجانبي، وأخاف أكثر على غدٍ بلاّك.

نجوى سمعت كل كلمة. عيناها كانت لامعتين في الضوء الأزرق الخافت. لم تسرع في الرد. مدت يدها أولاً وأمسكت وجهه بكفيها، كأن تتأكد أنه حقيقي.

ـ وأنا أحبك ـ قالت أخيرًا، صوتها مبحوح من العاطفة المحتجزة. ـ أحبك منذ أن بدأت أستمع إليك حقًا، منذ أن صرت أرى الرجل الذي يحمل ذنبه بصمت ويحاول أن يصلح شيئًا قبل النهاية. أحب أنك لم تتركني عندما انهارت، وأحب أنك تضحك تلك الضحكة القصيرة المتعبة التي صارت أجمل صوت في هذه المحطة. أحبك في اليأس... وفي هذا الأمل الغريب الذي يشبهنا.

اقتربا من بعضهما ببطء. القبلة التي جاءت لم تكن كالسابقة في ليلة الانهيار. تلك كانت ملاذًا ونجاة. هذه كانت اعترافًا كاملًا. كانت أبطأ، وأعمق، وأكثر وعيًا. شفاههما تلامست كأنهما يختمان عهدًا لا يشهد عليه أحد غير الأرض الميتة والنجوم البعيدة. يداه أحاطتا بوجهها، ويداها أمسكتا بكتفيه بقوة، كأن تمنع الزمن من المرور.

عندما انفصلا، بقيت جباههما متلامسة. أنفاسهما مختلطة ودافئة في الهواء البارد للغرفة.

ـ غدًا نطلقهم ـ همس هو. ـ وبعدها... نقرر إن كنا سنبقى أو نعود.

ـ غدًا ـ أجابت. ـ لكن الليلة... الليلة لنا فقط.

جلسا على الأرض وقتًا أطول، جسداهما متقاربان، رأسها على صدره أحيانًا، ويده تمسك شعرها برفق. تكلما قليلًا عن أشياء صغيرة: طعام حقيقي تذكراه، أغنية قديمة، لون السماء كما كان قبل السحابة. ثم صمتا من جديد، والصمت هذه المرة كان مليئًا بكل ما قالاه وبكل ما لم يعودا يحتاجان إلى قوله.

خارج النافذة، الكون كان شاسعًا ومظلمًا.

داخل الغرفة، في تلك الليلة الطويلة قبل الإطلاق، كان هناك حب واضح وصريح، يأس لا ينكره أحد، وأمل هش يولد من مجرد وجودهما معًا.

وقبلا أن يغفو كل واحد منهما على كتف الآخر، همست هي مرة أخيرة:

ـ مهما حدث غدًا... أنا سعيدة أنني وصلت إلى هنا معك.

هو قبل رأسها وأجاب بصوت غارق في النعاس والعاطفة:

ـ وأنا... لم أعد وحيدًا منذ أن بدأت أحبك.

وهكذا انتهت الليلة.

أطول ليلة، وأهداها، وأكثرها امتلاءً في محطة الرازي.

الفصل الثامن عشر

في الساعة المحددة وقفوا معًا في غرفة التحكم الرئيسية.

الشاشات الكبيرة أظهرت عنبر الشحن مفتوحًا على الفراغ. الخمسة عشر روبوتًا كانت مصطفة في ثلاثة صفوف، أضواؤها الخضراء ثابتة، أجسامها المعدنية تلمع تحت الإضاءة الداخلية للمرة الأخيرة. البيانات النهائية تأكدت. المسارات حُسبت. لم يعد هناك شيء يؤجل اللحظة.

نجوى كانت تقف إلى يمين لوحة الإطلاق، وماجد إلى يسارها. يداهم لم تفترقا منذ أن دخلا الغرفة. كلاهما يرتدي الزي الكامل، لكن الوجهين كانا عاريين من أي قناع إلا التعب والأهمية.

ـ جاهزون؟ ـ سأل ماجد بصوت منخفض.

هي أومأت فقط. ثم مدت إصبعها مع إصبعه، وضغطا معًا على الزر المزدوج.

البوابة الخارجية انفتحت بصمت مذهل. الهواء المتبقي في العنبر خرج في موجة بيضاء قصيرة، ثم امتصها الفراغ. الروبوتات بدأت تتحرك واحدًا تلو الآخر على المسارات المغناطيسية، ببطء أولاً، ثم أسرع، كأنها تعرف أن هذه هي رحلتها الأخيرة من المحطة.

الأول انطلق. جسمه الصغير لمع لحظة في ضوء الشمس المنعكس على حافة المحطة، ثم اندفع إلى الظلام. الثاني تبعه، ثم الثالث. الصفوف تهاوت بالترتيب، كل روبوت يحمل في ذاكرته الشرائط المليئة بما تبقى من البشرية: أصواتهم، وجوههم، المعادلات، السمفونيات، الاعترافات، الأخطاء، والحب الذي ولد في آخر الأيام.

ماجد ونجوى راقبا الشاشات دون أن يتكلما. الروبوتات صارت نقاطًا مضيئة صغيرة تبتعد بسرعة متزايدة. بعضها اتخذ مسارًا نحو المناطق الخارجية للمجموعة الشمسية، وبعضها نحو الفراغ الأعمق بين النجوم. الضوء الأخضر على كل واحد منها بقي مرئيًا ثواني إضافية، ثم بدأ يخفت مع المسافة.

في لحظة واحدة، بدا الصف الأخير كسرب من اليراعات المعدنية تبتلعها العتمة. ثم صارت نقاطًا باهتة. ثم اختفت تمامًا.

الشاشات عادت سوداء إلا من بيانات المسار التي تستمر في التحديث بلا عواطف. العنبر أصبح فارغًا. البوابة أُغلقت من جديد.

نجوى أخرجت هواءً طويلًا كانت تحتفظ به دون أن تدري. ماجد أمسك بكتفها، وجذبها إليه. احتضنها من الخلف وهما ما زالا ينظران إلى الشاشات السوداء.

ـ ذهبوا ـ همست هي.

ـ ذهبوا... حاملين كل شيء ـ أجاب هو. ـ كل ما استطعنا قوله عنّا.

ظلا واقفين هكذا وقتًا طويلاً. الصورة البصرية بقيت محفورة خلف جفنيهما: الروبوتات تبتعد كنقاط نور صغيرة، ثم تبتلعها العتمة الكونية الشاسعة، وهي تحمل إرث جنس كامل في صناديق معدنية باردة. لم يكن هناك انفجار ولا ضجيج. فقط اختفاء هادئ ومهيب ونهائي.

بعد أن أطفآ الأنظمة، سارا ببطء إلى غرفة الرصد. الأرض السوداء كانت هناك كالعادة. لكنهما شعرا هذه المرة أن جزءًا منهما قد غادر مع الروبوتات، يسافر الآن في الظلام، ربما إلى الأبد، وربما إلى عينين غريبتين في مستقبل بعيد.

ـ هل تظن أنها ستصل يومًا؟ ـ سألته نجوى وهي تتكئ عليه.

ـ لا أعرف. لكنني أعرف أنها لم تعد هنا. وهذا... يكفي الآن.

جلسا أمام النافذة. المحطة صارت أهدى مما كانت عليه منذ شهور. الروبوتات رحلت. الوصية أُطلقت.

وفي الفراغ الواسع خارج الجدران، كانت خمسة عشر نقطة معدنية تبتعد أكثر فأكثر، حاملةً أصوات بشرية أخيرة إلى كون لا يرد.

الفصل التاسع عشر

الصمت الذي ملأ المحطة بعد الإطلاق كان مختلفًا عن كل صمت سابق.

لم يعد هناك روبوتات تنتظر الفحص، ولا شرائط تُراجع، ولا قرارات تؤجل. العنبر فارغ تمامًا. غرفة البيانات مظلمة. الشاشات في غرفة التحكم تعرض فقط المسارات البعيدة للنقاط المعدنية الخمس عشرة وهي تتباعد أكثر فأكثر في الظلام. المحطة عادت إلى همهمتها الرتيبة، لكنها بدت فجأة أكبر وأفرغ.

جلسا في غرفة الرصد ساعات دون أن يتكلما كثيرًا. الأرض السوداء تدور تحتهما كالعادة، لكن الشعور داخل الصدر كان جديدًا: خفة الإنجاز، وثقل الفراغ الذي يليه.

ماجد قال أخيرًا، وهو يحدق في النافذة:

ـ فعلنا شيئًا أكبر منا. حتى لو متنا غدًا... الرسائل خرجت. الصوت خرج.

نجوى أومأت ببطء. رأسها كان على كتفه، ويدها تمسك يده برفق.

ـ نعم. لم نعد مجرد شاهدين يجلسان فوق قبر. صرنا... من تركوا أثرًا.

فكرا معًا في محتوى الشرائط التي حملتها الروبوتات. لم تكن المعرفة والفن واللغة فقط. في الجزء الخاص بالتاريخ والاعترافات، وضعا تحذيرًا صريحًا وواضحًا. سجلا بصوتيهما أن الحرب والطاعون لم يأتيا من فراغ، بل من تفشي أشكال متعددة من التطرف التي غذت بعضها بعضًا حتى أحرقت العالم.

ذكرا تطرف الجماعات الإخوانية والسلفية التي حولت الدين إلى وقود للكراهية والسيطرة. ذكرا تطرف الجولاني في سوريا، وتطرف الدبيبة وصراعات ليبيا، وتطرف أردوغان في خطابه ومغامراته، وتطرف آل سعود وآل ثاني في سياساتهم المتقلبة التي أشعلت المحاور. ذكرا تطرف خامنئي والمشروع الطائفي الذي رد على التطرف السني بتطرف موازٍ. وذكرا تطرف الصهاينة في تعامله مع الآخر كتهديد وجودي دائم، وتطرف بعض التيارات المسيحية المتشددة في الغرب التي رأت في الصراع نهاية مقدسة. قالوا بوضوح إن كل هذه التطرفات ـــ الإسلامية السنية والشيعية، واليهودية، والمسيحية ـــ غذت آلة الحرب حتى انفلتت القنابل، ثم جاء الشتاء النووي، ثم البكتيريا التي لم تفرق بين أحد.

لم يكتبوا التحذير بنبرة انتقام، بل بنبرة شاهد أخير يقول: «هذا ما دمرنا. لا تكررونه».

نجوى همست وهي تمسح إصبعها على ظهر يده:

ـ هل تظن أنهم سيفهمون التحذير لو وصلهم يومًا؟

ـ لا أعرف. لكننا قلناه. لم نخبئه تحت الجمال ولا تحت العلم. وضعناه في الصندوق نفسه. هذا كل ما استطعنا فعله.

شعرا معًا أن ما أنجزاه يتجاوز بقاءهما الشخصي. الروبوتات تحمل الآن ليس فقط معادلة أو سمفونية، بل شهادة على كيف يموت العالم عندما ينتصر التطرف بكل أسمائه ورياياته. وصية ومحاولة أخيرة لمنع تكرار الكارثة... حتى لو لم يسمعها أحد أبدًا.

الصمت امتد بينهما من جديد. لكنه لم يكن صمت العجز القديم. كان صمت من أفرغ ما في داخله، وتركه يسافر في الكون، ثم جلس يواجه ما تبقى: بعضهما، والمحطة الفارغة، والسؤال عن الخطوة التالية.

ماجد قبل رأسها بهدوء.

ـ الآن... لم يعد لدينا ما نؤجله. بقي أن نقرر إن كنا سنبقى هنا حتى النهاية، أو نحاول العودة.

هي أ Tightened her grip on his hand.

ـ غدًا نقرر. الليلة... نجلس فقط مع هذا الشعور. أننا فعلنا شيئًا أكبر من خوفنا، وأكبر من موتنا.

خارج النافذة، النقاط المعدنية كانت قد اختفت تمامًا في العتمة.

داخل الغرفة، الصمت كان عميقًا... ومليئًا بما أطلقاه للتو إلى المجهول.

الفصل العشرون

في صباح اليوم التالي جلسا في غرفة الطعام، والصواني أمامهما لم تُمس تقريبًا.

الصمت الذي أعقب الإطلاق ما زال يملأ المحطة، لكنه لم يعد يمنع الكلام. الآن صار الكلام ضروريًا. ماجد كان ينظر إلى الطاولة، ثم إلى وجهها، ثم يعود إلى الطاولة. نجوى كانت تلف الكوب البارد بين كفيها دون أن تشرب.

هو بدأ أولًا، بصوت هادئ لكنه حاسم:

ـ لا أريد أن أموت هنا. ليس بهذه الطريقة. المحطة ستنهار يومًا، أو ينفد الأكسجين، أو يتعطل شيء لا نستطيع إصلاحه. أريد أن نعود. حتى لو كانت الأرض مقبرة... أريد أن أرى ما بقي بعيني، لا من خلف زجاج النافذة.

نجوى رفعت عينيها ببطء. الخوف كان واضحًا فيها قبل أن تتكلم.

ـ وتعود إلى ماذا يا ماجد؟ إلى السحابة السوداء؟ إلى مدن محروقة وجثث ربما ما زالت هناك تحت الرماد؟ إلى بكتيريا قد تكون ما زالت حية وتنتظر أي شيء دافئ؟ نحن نجونا هنا لأننا بعيدون. العودة... قد تكون انتحارًا بطيئًا أو سريعًا، لا فرق.

ـ وقد تكون فرصة ـ رد هو، ولهجته أكثر صلابة. ـ ربما هناك بقعة نظيفة. ربما نجت منطقة لم تصلها السحابة بالكامل أو الطاعون. حتى لو لم نجد شيئًا... سأموت وأنا أحاول، لا وأنا أنتظر في علبة معدنية.

هي هزت رأسها، ويداها ارتجفتا قليلاً حول الكوب.

ـ أنا خائفة. خائفة من الهبوط، خائفة من الهواء هناك، خائفة من أن أرى بأم عيني ما كنت أتخيله فقط. هنا على الأقل لدينا بعضنا. لدينا جدران تحمنا. هناك... لا أعرف ماذا ينتظرنا.

ماجد مد يده عبر الطاولة وأمسك بيديها الاثنتين. عيناه كانت ثابتة على عينيها.

ـ وأنا أيضًا خائف. لكن الخوف هنا صار قفصًا. لقد أطلقنا الوصية. فعلنا ما استطعنا من أجل من قد يأتي بعدنا. الآن بقي أن نختار لأنفسنا. لا أستطيع أن أجبرك. إذا قررتِ البقاء، سأبقى معك حتى النهاية. لكنني أطلب منك... أن تفكري معي، لا ضدي.

الصمت عاد ثواني طويلة. نجوى نظرت إلى يديه فوق يديها، ثم إلى النافذة الصغيرة التي تظهر جزءًا من الظلام. أخيرًا رفعت وجهها، والدموع لم تنزل لكنها كانت قريبة.

ـ وأنت مصمم إلى هذه الدرجة؟

ـ مصمم أن أحاول. مصمم أن لا أتركك وحدك أيًا كان القرار. لكن نعم... أريد العودة.

هي أغلقت عينيها لحظة، ثم فتحتهما. الصوت الذي خرج منها كان متعبًا وصادقًا:

ـ إذا ذهبنا... نذهب معًا. وإذا متنا هناك... نموت معًا. لا أريد أن أبقى هنا أراقب النافذة بعدك، ولا أريدك أن تذهب وحدك. القرار... يكون مشتركًا أو لا يكون.

ماجد ضغط على يديها.

ـ إذن نقرر معًا. نعود.

نجوى أومأت ببطء، كأنها توقع حكمًا على نفسها وتقبله في الوقت ذاته.

ـ نعود. لكن نأخذ كل الاحتياطات الممكنة. البدلات، العينات، الأسلحة إن وجدت، وكل الأكسجين الإضافي. وإذا وصلنا ورأينا أن الموت هناك أسرع... نعود إلى السفينة إن استطعنا.

ـ متفقان.

نهضا معًا. الصواني ما زالت مليئة بالطعام البارد. لم يعودا قادرين على الأكل الآن. القرار كان قد اتُخذ: لن يبقيا في المحطة حتى النفاد البطيء. سيحملان ما تبقى من الأمل والخوف معًا، ويهبطان نحو الأرض الميتة.

في الممر المؤدي إلى عنبر السفن، أمسك كل واحد بيد الآخر بقوة أكبر من المعتاد. الخوف ما زال هناك، في صدرها خاصة. لكن التصميم المشترك صار أقوى منه.

غادرا غرفة الطعام تاركين الصمت خلفهما.

أمامهما الآن كان التحضير للرحلة الأخيرة... نحو ما تبقى من البيت القديم.

الفصل الحادي والعشرون

الاستعداد استغرق يومين كاملين.

سفينة الطوارئ الوحيدة المتبقية كانت راسية في الطرف البعيد من المحطة، صغيرة ومتهالكة قليلًا من سنوات الانتظار دون استخدام، لكنها كانت صالحة. ماجد فحص المحركات وأنظمة الملاحة والبدلات الواقية ثلاث مرات. نجوى راجعت مخزون الأكسجين والطعام والماء والأدوية المضادة للإشعاع، ثم أضافت عينات من الهواء والتربة التي جمعها الروبوتات قديمًا.

في الليلة الأخيرة قبل المغادرة، سارا معًا في جولة وداع بطيئة عبر غرفة الرصد وغرفة البيانات وعنبر الشحن الفارغ وغرفتيهما. ودّعا الجدران التي شهدت خوفهما وحبهما وصمتهما.

عند باب السفينة توقفا. الأضواء خلفهما تنطفئ تدريجيًا. ماجد دخل أولًا، ثم تبعته نجوى وأغلقت الباب خلفهما بصوت إحكام نهائي.

السفينة كانت ضيقة، الإضاءة خافتة حمراء للطوارئ، والأرضية المعدنية باردة. جلسا على المقعدين المتقابلين لحظة، يتنفسان الصمت الجديد. ثم نظر كل واحد إلى الآخر. التوتر الذي رافقهما طوال اليوم تحول فجأة إلى شيء أكثر سخونة وإلحاحًا.

ماجد مد يده وأمسك بوجهها. قبلها بقوة هذه المرة، لا ببطء الاعتراف السابق، بل بجوع واضح. نجوى ردت على القبلات بنفس الشراسة، لسانها يلتوي مع لسانه، ويداها تنزلقان تحت قميصه لتمسكا بلحم ظهره الساخن.

في دقائق كانا يمزقان الملابس عن بعضهما. القميصان والسروالان والملابس الداخلية تساقطت على الأرضية المعدنية. صارا عاريين تمامًا، حافيين، جلدهما يلامس الهواء البارد للسفينة.

ماجد دفعها بلطف حتى استلقت على ظهرها فوق الأرضية الباردة. ركع بين فخذيها المفتوحين، ونظر إلى فرجها المتورم اللامع قبل أن ينزل عليه بفمه. لعق شفريها ببطء أولًا، ثم بسرعة أشرس، لسانه يغوص في سوائلها الغزيرة التي بدأت تسيل على فخذيه وعلى الأرض. نجوى ألقت رأسها إلى الخلف وشهقت بصوت عالٍ، أصابعها تغرس في شعره وتشده إليها أكثر. هو مص بظرها بقوة حتى ارتعش جسدها كله، ثم أدخل إصبعين في فتحاتها الضيقة الرطبة وحرّكهما بينما يلعق ويصفر.

ـ أدخلني الآن... أرجوك ـ تمتمت بصوت مبحوح مكسور من اللذة.

نهض فوقها، أمسك قضيبه المنتصب الصلب الذي كان ينبض ويقطر سائلًا مسبقًا، ومرره بين شفريها المبللين عدة مرات قبل أن يغرزه دفعة واحدة حتى آخره. صرخت نجوى من الامتلاء، أظافرها تحفر في كتفيه. بدأ ينكحها بقوة وعمق، وركاته سريعة وعنيفة تجعل صوت ارتطام لحميهما يملأ السفينة الضيقة مع شهقاتهما وأنينهما. سوائلها كانت تصطخب حول قضيبه مع كل دخلة، تسيل على خصيتيه وعلى الأرضية تحتها.

قلبها على بطنها، رفع وركيها، ودخله من الخلف أعمق. يداه أمسكتا بثدييها وضغطتا على حلمتيها بينما ينكحها بقوة تجعله يئن كحيوان. هي تدفع إليه بمؤخرتها، تطلب المزيد بصوت فاحش صريح:

ـ أعمق... املأني... لا تتوقف.

عندما أحس أنه يقترب، سحب قضيبه اللامع بسوائلها، استدارت هي بسرعة وأخذته في فمها حتى حلقها، تمص وتلعق بنهم وهي تنظر إليه من تحت. هو أمسك رأسها وضرب فمها بعدة شخنات سريعة قبل أن ينفجر. المني اندفع بكثافة في حلقها وعلى لسانها، بعضها سال من زاوية فمها على ثدييها. هي ابتلعته ثم لعقته حتى نظفته، قبل أن يدفعها لترقد على ظهرها من جديد وينزل بين فخذيها مرة أخرى ليلعق مزيج سوائلها ومنيه الذي سال منها.

بعد دقائق من اللعق والعض الخفيف والضحك المبحوح، رقدا أخيرًا متجاورين على أرضية السفينة الباردة. عاريين تمامًا، حافيين، صدريهما يعلوان ويهبطان بسرعة. جسدهما لامع بالعرق، بطنها وفخذاها مبللان بسوائل متعتها الغزيرة وبقايا منيه الأبيض الذي يسيل ببطء من فرجها المنتفخ على الأرض المعدنية. هو أمسك يدها، وهي وضعت رأسها على كتفه، كلاهما يلهث ويبتسم بسعادة منهكة فاحشة.

ـ لم أكن أتخيل أن آخر ليلة هنا ستكون هكذا ـ همس هو بصوت أجش ما زال مليئًا باللذة.

هي ضحكت ضحكة قصيرة مبحوحة، ومررت ساقها العارية فوق ساقه.

ـ أفضل وداع ممكن... قبل أن نواجه ما ينتظرنا هناك.

ظلا مستلقيين هكذا وقتًا أطول، عاريين ومبللين وسعيدين ولاهثين، رائحة الجنس والعرق تملأ هواء السفينة الضيقة. خارج الجدران كانت المحطة فارغة تدور في صمتها. داخلهما، على أرضية سفينة الطوارئ، كانا ما يزالان يشيران إلى أنهما أحياء، ويرغبان، ويحبان حتى آخر قطرة.

بعد ساعة تقريبًا نهضا ببطء، تنظفا بقدر ما أمكن، ارتديا البدلات الواقية فوق أجسادهما التي ما زالت تحمل آثار الليلة، وجلسا في مقعدي القيادة.

محطة الرازي بقيت خلفهما.

أمامهما الأرض الميتة.

وبينهما بقيت حرارة ما فعلاه على الأرضية الباردة، ورضا عميق بأنهما ودّعا البيت الغريب بأكثر طريقة بشرية ممكنة.

الفصل الثاني والعشرون

انفصلت السفينة عن المحطة في صمت شبه كامل.

المحركات دفعت بهما برفق في البداية، ثم ازدادت قوتها تدريجيًا. من النافذة الجانبية رايا محطة الرازي تبتعد: الجسم المعدني الطويل الذي كان بيتهما لشهور يتحول إلى نقطة لامعة صغيرة، ثم يختفي خلف منحنى الظلام. لم ينظر أي منهما إلى الخلف أكثر من مرة. القرار كان قد اتُخذ.

أمامهما كانت الأرض.

كلما اقتربا، صارت السحابة السوداء أوضح وأكثف. لم تعد مجرد غطاء بعيد يُرى من المدار. صارت جدارًا هائلًا من الرماد والدخان المتجمد والإشعاع، يلتف حول الكوكب ككفن لا نهاية له. في بعض المناطق كانت السحابة تتموج ببطء، كأنها ما زالت تتنفس بقايا الحرائق القديمة. في مناطق أخرى بدت صلبة وسوداء تمامًا، لا تسمح لأي ضوء شمس أن يخترقها.

ماجد كان يمسك بعصا التحكم، عيناه على الشاشات والمسار. نجوى جلست إلى جانبه، تراقب النافذة الأمامية دون أن ترمش كثيرًا. اليدان اللتان كانتا تمسكان بعضهما على أرضية السفينة قبل ساعات صارت الآن مشغولتين بالأزرار والبيانات، لكن الركبتين كانتا متلامستين تحت اللوحة.

مع الاقتراب أكثر، بدأت الذكريات تزداد حدة كأنها تُسحب من أعماقهما بقوة الجاذبية نفسها.

ماجد رأى فجأة وجه أخيه في آخر مكالمة فيديو: الابتسامة المتكلفة، والعينان اللتان كانتا تعرفان أكثر مما يقول الفم. ثم صورة المدينة كما ظهرت في التقارير الأولى بعد الضربة... مجرد فوهة سوداء ودخان يرتفع إلى الأبد. شعر بالمرارة القديمة تعود إلى حلقه، تلك المرارة المرتبطة بالخلايا الشمسية التي ساهم في تطويرها ثم رآها تُستخدم لإطالة أمد الحرب.

نجوى في الوقت نفسه كانت ترى لينا تضحك بالوشاح الأزرق، ثم الرسالة القصيرة من الزميلة، ثم صوت والدتها الأخير: «اعتني بنفسك يا بنتي... ولا ترجعي». السحابة أمامهما صارت فجأة تشبه الغطاء الذي سقط على مدينتها، وأصابعهما ارتجفتا فوق لوحة التحكم.

ـ أقوى مما تخيلت ـ همست هي وهي تحدق في الجدار الأسود. ـ من فوق كانت تبدو... بعيدة. الآن أشعر أنها ستبتلعنا.

ماجد أجاب دون أن يبعد عينيه عن المسار:

ـ نمر عبر الطبقات العليا أولًا. الكثافة أقل هناك. بعدها نبحث عن أي ثغرة أو منطقة إشعاع منخفض.

السفينة اهتزت قليلاً عندما دخلت الطبقات الخارجية للسحابة. الغبار الدقيق والإشعاع سُجلا على الأجهزة فورًا. الضوء داخل المقصورة خفت أكثر، وصارت النافذة تعرض فقط سوادًا متحركًا مع ومضات خافتة بعيدة كأنها بقايا برق ميت.

الذكريات لم تتوقف. صارت تأتي على شكل ومضات سريعة ومؤلمة: رائحة المطر الحمضي كما وصفتها التقارير، صوت الصفارات في المدن قبل أن تصمت، وجوه الزملاء على المحطة في الأيام الأولى عندما كان الأمل ما زال ممكنًا. كل ذكرى كانت تزداد وضوحًا كلما اقتربا من السطح، كأن الأرض الميتة تستعيد أرواحها عبرهما.

نجوى مدت يدها وأمسكت بمعصم ماجد فوق عصا التحكم. هو قلب كفه وأمسك بأصابعها بقوة لحظة قصيرة قبل أن يعود إلى القيادة.

ـ مهما رأينا تحت هذه السحابة ـ قال بصوت ثابت ـ نحن معًا.

هي ضغطت على يده وأجابت بصوت مبحوح:

ـ معًا.

السفينة واصلت هبوطها البطيء المحسوب عبر السواد. السحابة كانت الآن في كل مكان حولهما: فوقهما وتحتهما وعلى جوانبهما. الذكريات كانت تصرخ في رأسيهما، والخوف يجلس بينهما كراكب ثالث صامت.

لكن اليدين بقيتا قريبتين، والقرار الذي اتخذاه في المحطة ما زال يح Panorama بهما نحو الأسفل... نحو ما تبقى من البيت القديم تحت الكفن الأسود.

الفصل الثالث والعشرون

الدخول إلى الغلاف الجوي بدأ بهزة عنيفة لم تكن في الحسابات.

السفينة ارتجت بقوة عندما اصطدمت بالطبقات الكثيفة من السحابة السوداء. الغبار المشع والرماد المتجمد ضربا الهيكل الخارجي كوابل من الحجارة. الحرارة ارتفعت فجأة داخل المقصورة رغم أنظمة التبريد، والإنذارات الحمراء أضاءت دفعة واحدة على كل الشاشات.

ماجد أمسك عصا التحكم بكلتا يديه، عضلات ذراعيه مشدودة حتى الارتعاش. نجوى كانت تثبت البيانات بسرعة محمومة، صوتها مرتفع فوق ضجيج الاهتزاز:

ـ الإشعاع يتجاوز الحد الآمن بثلاثة أضعاف! الهيكل يتحمل... لكن بالكاد.

ـ نثبت المسار ـ صاح هو بين أسنانه. ـ لا نرتفع الآن. إذا صعدنا لن نجد ثغرة أخرى.

السفينة كانت تهتز كأنها على وشك أن تتمزق. النوافذ صارت سوداء تمامًا إلا من ومضات برتقالية بعيدة تشبه حرائق قديمة ما زالت تتنفس تحت الرماد. الجاذبية بدأت تسحبهم بقوة متزايدة، والأجساد داخل البدلات الواقية صارت ثقيلة ومتعرجة.

التوتر الجسدي بلغ ذروته. عرق ماجد كان يسيل داخل خوذته ويحرق عينيه. يداه تؤلمانه من شدة القبض على العصا. نجوى شعرت بغثيان حاد، لكنها ابتلعته وواصلت العمل على الأنظمة. ركبتاهما كانتا متلامستين بعنف مع كل هزة، كآخر اتصال جسدي يثبت أنهما ما زالا معًا.

ـ ارتفاع ثمانين كيلومترًا... سبعين... ـ كانت تقرأ الأرقام بصوت مبحوح. ـ السرعة أعلى من المخطط. نحتاج إلى كبح أقوى.

ماجد شغّل المحركات العكسية بأقصى طاقة. السفينة صرخت معدنًا، والجسدان اندفعا إلى الأمام داخل الأحزمة. لحظة واحدة بدا فيها أن كل شيء سينتهي هنا: انفجار أو احتراق أو تحطم في الطبقات العليا.

عاطفيًا كان التوتر أشد. في خضم الضجيج والاهتزاز تذكرا فجأة كل شيء دفعة واحدة: المحطة الفارغة خلفهما، الروبوتات التي رحلت، الليلة على أرضية السفينة، الاعتراف بالحب، والقرار الذي اتخذاه معًا. الخوف من الموت لم يعد مجرد فكرة. صار طعمًا معدنيًا في الفم، وضغطًا على الصدر يمنع التنفس الكامل.

نجوى صرخت فجأة فوق الصوت:

ـ ماجد... إذا لم نصل...

ـ سنصل! ـ قاطعها بصوت أجش مكسور من الجهد. ـ أمسكي. لا تفكري في غير ذلك الآن.

هي مدت يدها بصعوبة وأمسكت بذراعه فوق البدلة. القبضة كانت قوية ويائسة. هو لم يستطع أن يرد القبضة لأن يديه مشغولتان، لكنه شعر بها كأنها المرساة الوحيدة المتبقية.

الارتفاع انخفض إلى أربعين كيلومترًا... ثلاثين... عشرين. السحابة بدأت تفتح ثغرات صغيرة هنا وهناك، تسمح بومضات من منظر الأرض تحتها: مساحات رمادية وسوداء، لا أخضر ولا أزرق. أجهزة القياس أظهرت مناطق إشعاع متفاوتة. واحدة منها بدت أقل سوءًا من البقية.

ـ هناك! ـ صاحت نجوى. ـ شرقًا بعشرين درجة. الكثافة أقل.

ماجد حوّل المسار بكل ما تبقى من قوة في ذراعيه. السفينة مالت بعنف، والإنذارات صارت صراخًا متواصلاً. في اللحظة التي اخترقوا فيها الطبقة الأخيرة، ظهر السطح أخيرًا تحتهم: أرض متفحمة، تلال من الرماد، بقايا هياكل معدنية بارزة كعظام.

الهبوط كان خشنًا وعنيفًا. المحركات زأرت، والأرض ارتطمت بالسفينة بقوة ألقت بهما داخل الأحزمة. صوت تحطم شيء في القسم الخلفي ملأ المقصورة، ثم صمت مفاجئ شبه كامل إلا من صفير الأنظمة المتضررة.

التنفس كان أول ما عاد. ثم الوعي بأنهما ما زالا على قيد الحياة.

ماجد أدار رأسه بصعوبة داخل الخوذة. نجوى كانت تنظر إليه، وجهها شاحب ومبلل بالعرق داخل الخوذة، عيناها واسعتان من بقايا الرعب.

ـ نزلنا... ـ همس هو بصوت أجش.

هي أومأت فقط، وما زالت تمسك بذراعه بقوة لا تريد أن تفلتها.

خارج السفينة كانت الأرض الميتة تنتظر.

داخلها، التوتر الجسدي والعاطفي الذي بلغ ذروته بدأ ينحسر ببطء، تاركًا مكانه لإجهاد عميق وإدراك واحد مشترك:

لقد وصلا.

الفصل الرابع والعشرون

الباب الخارجي للسفينة انفتح بصوت صفير طويل.

الهواء الذي دخل كان ثقيلًا ومرًّا، يحمل رائحة رماد قديم وإشعاع بارد. البدلتان الواقيتان سجلتا مستويات مرتفعة لكنها غير قاتلة فورًا في هذه البقعة التي اختاراها. ماجد نزل أولًا، قدمه غاصت حتى الكاحل في طبقة ناعمة من الرماد الرمادي. ثم مدت نجوى يدها فأسندها حتى وقفت إلى جانبه.

أمامهما امتدت أرض متفحمة لا نهاية لها. تلال منخفضة من الرماد، هياكل معدنية ملتوية بارزة كأضلاع حيوان هائل ميت، وبقايا أبنية منصهرة هنا وهناك. السماء فوقهما لم تكن سماء. كانت استمرارًا للسحابة السوداء، منخفضة وكثيفة، لا شمس ولا نجوم. الضوء الوحيد كان رماديًا باهتًا كأنه يأتي من الأرض نفسها.

سارا ببطء، اليدان ممسكتان رغم سماكة القفازات. الأجهزة المحمولة كانت تمسح المحيط باستمرار. في البداية لم يظهر شيء سوى القراءة نفسها: إشعاع، جفاف، صمت.

بعد نحو ساعة من السير وصلوا إلى ما بدا بقايا طريق قديم. على جانبه هيكل سيارة محترق، وإلى أبعد قليلًا بقايا جدار عليه كتابة باهتة لم تعد تُقرأ. نجوى توقفت فجأة. الجهاز في يدها أصدر صفيرًا خافتًا مختلفًا.

ـ ماجد... هنا. القراءة أقل. بكثير.

اقترب. الشاشة أظهرت انخفاضًا ملحوظًا في مستوى الإشعاع على مساحة صغيرة لا تتجاوز بضع مئات من الأمتار. التربة تحت الرماد كانت أقل تسممًا. الهواء فوقها يحمل نسبة أكسجين أعلى بقليل مما حولها. ليست جنة. ليست أرضًا نظيفة تمامًا. لكنها... ثغرة. بقعة صغيرة نجت بشكل ما، أو تعافت ببطء على مدى السنوات.

جلسا على ركبتيهما فوق الرماد. خلعا خوذتَيهما بحذر بعد أن تأكدا من القراءات مرة ثانية وثالثة. الهواء أحرق الحلق في البداية، ثم صار ممكنًا. تنفسا بعمق لأول مرة منذ غادرا المحطة.

ماجد نظر إليها. وجهها شاحب ومتسخ بالرماد، شعرها ملتصق بالعرق تحت غطاء الرأس، لكن عينيها كانت حية.

ـ ربما هنا ـ قال بصوت أجش. ـ ربما نبدأ من هنا. أو نموت هنا. لا نعرف بعد.

نجوى أمسكت وجهه بيديه العاريتين الآن، الرماد يلتصق بأصابعها.

ـ لا يهم. نحن هنا معًا. رأينا الحقيقة. لم نختبئ حتى النهاية.

قبّل كل واحد منهما الآخر وسط الرماد والسماء السوداء. القبلة كانت بطيئة ومالحة من العرق والغبار، لكنها كانت حقيقية ككل شيء فعلاه منذ أن أصبحا الاثنين الأخيرين.

بعد قليل مدّ ماجد الجهاز مرة أخرى. الصفارة الخافتة عادت، ثم ظهرت إشارة أضعف منها بكثير، تكاد لا تُلتقط. ليست من بشر. ربما من محطة أرضية قديمة ما زالت تعمل بالطاقة الذاتية، أو من روبوت مدفون نسيه الزمن. إشارة واحدة ضعيفة تتكرر كل بضع دقائق في الفراغ الراديوي الميت.

لم يعرفا ماذا تعني. لم يحاولان فك شيفرتها الآن. اكتفيا بأنها موجودة.

جلسا متجاورين على الأرض المتفحمة، الكتفان متلامسان، اليدان ممسكتان. خلفهما السفينة الصغيرة التي حملتهما. فوقهما السحابة التي لم تنقشع. أمامهما بقعة أقل موتًا، وإشارة ضعيفة لا تُفهم بعد، وكون فسيح يحمل في مكان ما خمسة عشر روبوتًا محملةً بوصيتهما وتحذيرهما وكل ما أحبّاه.

الرياح لم تكن تهب.

الصمت كان مطبقًا.

لكنهما كانا يتنفسان.

وما زالا ممسكين بيد بعضهما.

الفصل الخامس والعشرون

في الليلة الأولى على الأرض، داخل البقعة الصغيرة الأقل تسممًا، لم يستطيعا النوم.

السفينة كانت خلفهما بمسافة قصيرة، بابها مفتوح على الرماد. السماء السوداء منخفضة كسقف. الهواء ما زال حارقًا قليلًا في الحلق، لكنهما خلعا البدلتين الواقيتين بالكامل بعد أن تأكدا مرات من القراءات. صارا عاريين وحافيين فوق طبقة الرماد الناعم التي فرشا فوقها قطعة قماش سميكة من مخزون السفينة.

ماجد كان يجلس، ونجوى بين فخذيه وظهرها إلى صدره. يده انزلقت أولاً على ثدييها، تعصرهما وتلعب بحلمتيها حتى تصلبتا. هي أمالت رأسها إلى الخلف على كتفه وشهقت، ثم أدارت وجهها وقبلته بفم مفتوح ولسان جائع. في دقائق كان قضيبه منتصبًا وصلبًا يضغط على أسفل ظهرها.

قلبها لتواجهه. ركعت فوقه، أمسكت قضيبه الساخن بيدها ومررته بين شفريها المبتلين عدة مرات حتى صار لامعًا بسوائلها، ثم غرسته داخلها دفعة واحدة حتى آخره. صرخت من الامتلاء، وبدأت تتحرك فوقه بحركات دائرية عميقة وفاحشة. صوت ارتطام لحميهما الرطب كان واضحًا في الصمت الميت للأرض، مختلطًا بأنينهما وشهقاتهما.

ماجد أمسك وركيها بقوة ورفعهما ثم أسقطهما على قضيبه مرارًا، ينكحها من تحت بقوة متزايدة. سوائلها كانت تسيل بغزارة على خصيتيه وعلى القماش تحتهم، لامعة وخيطية. هو مص أحد ثدييها بقوة وهو يمارسها، وهي تشده من شعره وتطلب منه بصوت مبحوح فاحش أن يملأها، أن لا يتوقف، أن ينكحها كأنهما ما زالا في السفينة ليلة الوداع.

بعد أن وصل كلاهما إلى ذروة أولى عالية، استلقيا لحظة لاهثين، ثم بدأ من جديد. هذه المرة جعلها على أربع فوق الرماد، دخلها من الخلف بعمق أقوى، يداه تمسكان بثدييها وهي تدفع إليه بمؤخرتها. الوتيرة صارت أسرع وأعنف، حتى انفجر داخلها للمرة الثانية، منيه يندفع حارًا وكثيفًا يختلط بسوائلها ويسيل من فرجها على فخذيها وعلى الأرض. هي وصلت معه، جسدها يرتعش بعنف وهي تصرخ اسمه في الهواء الميت.

بعدها استلقيا متجاورين على القماش فوق الرماد، عاريين تمامًا وحافيين. صدريهما يعلوان ويهبطان بسرعة. جسدهما لامع بالعرق رغم برودة الهواء، فخذاها وبطنها مبللان بمزيج المني الأبيض وسوائلها الشفافة الغزيرة التي ما زالت تسيل ببطء من فرجها المنتفخ. هو أمسك يدها، وهي وضعت ساقها العارية فوق ساقه، كلاهما يلهث ويبتسم بسعادة جسدية منهكة وفاجرة.

في الصمت الذي أعقب اللهاث، بدأت الأفكار تتسلل.

ماجد همس وهو يحدق في السقف الأسود من السحابة:

ـ الروبوتات الآن في مكان ما هناك... بعيدة جدًا. تحمل كل شيء. لو وجدت يومًا كوكبًا آخر... أرضًا بديلة صالحة، أو حتى حضارة غريبة تفهم ما سجلناه... ربما يبدأ شيء جديد. ليس نحن. لكن ما كنا عليه.

نجوى مرت إصبعها على صدره المبلل بالعرق، صوتها ما زال مبحوحًا من اللذة والتعب:

ـ أو ربما تتيه إلى الأبد في الفراغ. لكن حتى لو وصلت... التحذير موجود. الجمال موجود. والخطأ موجود. لو وجدوا وطنًا بديلًا، على الأقل سيعرفون كيف لا يكرروا ما فعلناه هنا. ربما يتعلمون أن التطرف بكل أسمائه... هو ما أحرق السماء أولًا.

هو قلب رأسه وقبل كتفها المتسخ بالرماد والعرق.

ـ ولو لم يجدوا شيئًا أبدًا... فنحن فعلنا ما استطعنا. والليلة فعلنا ما يفعله الأحياء.

هي ضحكت ضحكة قصيرة مكسورة وسعيدة، ثم اقتربت أكثر حتى صار جسدهما ملتصقين بالكامل، المني وسوائلها لزجة بينهما.

ـ نعم. ما زلنا أحياء. وما زلنا نرغب. وهذا... على هذه الأرض الميتة... يكفي الليلة.

ظلا مستلقيين عاريين حافيين متجاورين، مبللين بالعرق والمنى وشهوتها المهبلية، يتنفسان الهواء الثقيل، ويفكران في النقاط المعدنية الخمس عشرة التي تسافر الآن في الظلام، حاملةً وصية جنس انتهى تقريبًا... وأملًا هشًا في أن يجد أحدهم، يومًا ما، سماءً أخرى لا تحترق.